



Equipes Notre-Dame

فرق السيّدة – لبنان

كانت أمُّ يسوعَ هناك

الأب بيير دسكوفمون

مع فريق عمل

هناك أيام يكون فيها الشفعاء والقديسون غير كافين،
العاديون منهم والعظماء، فيجب الالتماس ممّن هو أعلى،
والاستمرار في الصعود دائماً إلى الأعلى...
إلى أن يأتي وقت لا بدّ فيه من أن نحزم أمرنا،
ونتوجّه مباشرة إلى التي هي فوق الجميع.
يجب التحلّي بالجرأة، لمرة واحدة،
والتوجّه بجسارة إلى التي تشفع بنا،
وهي الوحيدة التي تستطيع أن تتكلم بسلطة الأمّ.

المقدمة

عرس قانا الجليل! "كانت أم يسوع هناك" (يوحنا ١/٢)

الصلب! "هناك عند صليب يسوع، وقفت أمه" (يوحنا ١٩/٢٥)

يركّز إنجيل يوحنا على وجود مريم في لحظتين حاسمتين من حياة المسيح الاجتماعية، في بدايتها وفي نهايتها، في قانا الجليل وفي مكان الصلب. إن الربط بين هاتين الآيتين من الإنجيل له مدلوله، ولا سيّما أن يسوع أطلق على أمه اسم: "امرأة" في كلتا الحالتين، وقد أراد بذلك- كما يقول آباء الكنيسة- أن يبيّن لنا أن مريم هي "حواء الجديدة"، شريكة "آدم الجديد" في إنجاز خلاص العالم.

وقد ساهمت مريم في هذا العمل الخلاصي العظيم، إلى حدّ أنها عجّلت في تحقيقه، إن صحّ القول، فتدخلها هو "سبب" آية يسوع الأولى!

إلا أنّ الدور الهامّ الذي قامت به مريم في تاريخ خلاصنا لا يقتصر على تلك السنوات التي قضتها على الأرض، إذ إنّها تواصل عملها في السماء، وهو عمل سريّ تؤدّيه لدى جميع الأولاد الذين أعطاهم إياهم يسوع المصلوب.

ليس من الخطأ إذًا، أن نكرّس عامًا كاملًا للتأمّل في المكانة السامية التي تحتلها مريم في دخول المسيح إلى حياتنا وإلى حياة الكنيسة بأسرها.

وثمة سبب آخر يحرض الأسرّة المسيحية على التفكير في هذا الأمر: فقد دشّن يسوع رسالته في أثناء حفلة عرس، وكان قبل عدة أسابيع قد جمع حوله بعض التلاميذ الذين اختارهم بعناية بعد قضائه ليلة كاملة في الصلاة (مر ١٣/١٩-١٩)، بيد أنّه لم يكن قد أظهر لهم مجده، كما ورد في الإنجيل (يوحنا ١٢/٢).

أظهر يسوع مجده بتبليته مع تلاميذه دعوة إلى حضور حفلة عرس لرجل وامرأة من قانا الجليل، وقد أراد بذلك أن يبيّن لنا الأهمية التي يعلّقها على مؤسسة الزواج ورغبته في تغيير وجه الحبّ الزوجي، رامزًا إلى هذه الرغبة بعمل رائع حوّل فيه الماء إلى خمر.

إذًا، على مثال هذين العروسين الشابين في قانا الجليل، لنُدعُ يسوع إلى أسرنا وإلى فرقتنا متذكرين أنّ أمّ يسوع حاضرة حضورًا سريًّا كما في قانا، وهي لا تزال تلعب دورًا رئيسيًّا، دورًا سنحاول فهمه بشكل أفضل خلال هذه السنة، من أجل حيوية مسيحية أكبر وإشعاع رسولي أفضل في أسرنا كافة.

يتضمّن هذا الموضوع ثمانية فصول- لا ندّعي استيفاء الموضوع فيها- نعرض فيها ثمانية حقائق أساسية عن مريم، لعلنا نجني منها فائدة كبيرة عند تقصّيها.

ويشتمل كل فصل على: أيقونة أو صورة لمريم، مرفقة بتعليق وجيز- عرض لاهوتي- صفحة من الإنجيل- صلاة - مختارات من نصوص كتبها مؤلفون قدامى أو معاصرون لها صلة بمضمون الفصل.

وغنيّ عن البيان أنّه يتعيّن على الفرق أن تختار بنفسها، من بين هذه المواد المتنوعة، ما يبدو لها الأفضل لتستعمله كنقطة انطلاق في أثناء تبادلها الأفكار.

■ ملاحظات

١- سيتمّ التعليق طوال السنة على نشيد مريم "تعظم نفسي الرب!"، فهي صلاة أساسية في حياة الفرق.

٢- لا يتضمن هذا الموضوع كل ما يمكن قوله عن إنجيل عرس قانا الجليل ... وأمامنا عدة سنين لنفكر فيه.

٣- تحتوي المرفقات على بعض اللمحات التاريخية والتفسيرية من شأنها أن تحظى باهتمام بعض القراء.

نشيد "مريم"

من إنجيل يسوع المسيح حسب القديس لوقا (١/٣٩-٥٦):

"وفي تلك الأيام مضت مريم تجدد السير إلى الجبل إلى مدينة في يهوذا. ودخلت بيت زكريا، فسلمت على أليصابات.

فلما سمعت أليصابات سلام مريم، ارتكض الجنين في بطنها، وامتألت أليصابات من الروح القدس، فهتفت بأعلى صوتها: "مباركة أنت في النساء! ومباركة ثمرة بطنك! أنى لي أن تأتيني أم ربي؟ فما إن وقع صوت سلامك في مسمعي حتى اهتز الجنين طرباً في بطني. فطوبى لك، يا من آمنت بأن ما بلغها من عند الرب سيتم". فقالت مريم:

"تعظم نفسي الرب وتبتهج روعي بالله مخلصي،

لأنه نظر إلى تواضع أمته، فما منذ الآن تطوبني جميع الأجيال،

لأن القدير صنع بي عظام، واسمه قدوس

ورحمته إلى أجيال وأجيال للذين يتقونه.

صنع عزاً بساعده وشتت المتكبرين بأفكار قلوبهم.

حطّ المقتدرين عن الكراسي ورفع المتواضعين،

أشبع الجياع خيراً والأغنياء أرسلهم فارغين.

عضد شعبه فذكر رحمته- كما كلم آباءنا- لإبراهيم ونسله إلى الأبد".

ومكثت مريم عندها نحو ثلاثة أشهر ثم عادت إلى بيتها".

* * *

كلمات مريم السبع

تنقل إلينا الأناجيل سبعة أقوال لمريم أم المسيح المباركة، لتبين، بطريقة صوفية، أن مريم ممثلة نعمة بمظاهر سبعة.

لم نُكَلِّم الملاك سوى مرتين:

- أنى يكون هذا؟ ... (لوقا ١/٣٤)

- أنا أمة الرب (لوقا ١/٣٨)

وتكلمت أيضاً مرتين مع أليصابات:

- أولاً لإلقاء "السلام" عليها (لوقا ١/٤٠)

- ثم لتسبيح الله عندما قالت: تعظم نفسي الرب (لوقا ١/٤٦)

أما مع ابنها، فتكلمت أيضاً مرتين:

- المرة الأولى في الهيكل، إذ قالت له: يا بني، لم صنعنا بنا ذلك؟ (لوقا ٢/٤٨).

- والمرة الثانية في عرس قانا: لم يبقَ عندهم خمر (يوحنا ٢/٣) وتكلمت مع الخدم مرة واحدة فقط: افعلوا ما يأمركم به (يوحنا ٢/٥).

وفي جميع تلك الحالات، كانت دائماً تنطق بكلمات قليلة جداً، ما عدا عندما أسهبت في تسبيح الله وشكره حيث قالت: "تعظم نفسي الرب وتبتهج روعي بالله مخلصي". لم تكن في هذه اللحظة تتحدث مع امرئ بل مع الله. (من أقوال القديس برناردان السييني، /١٣٨٠-١٤٤٤/ وهو راهب فرنسيسكاني كان يعظ بدون كلل في الساحات العامة في إيطاليا، مستعملاً لغة بسيطة وشعبية).

يا مريم إنك تحملين، باحترام جليل، الكنز الذي عهد الرب به إليك، وبايماء مهيبه ترينا إياه، داعية إيانا إلى رفع أنظارنا نحو وجه طفلك.

وأنت يا يسوع، بحركة ممثلة محبة وحنانا، تعانق أمك بساعدك "وتقبلها".

دعنا نتركك تقبلنا نحن أيضاً، فالיום لم يعد ساعدك ساعدك طفل، بل إنهما ساعدا العلي القدير الذي قام من بين الأموات يوم الفصح.

أمسك بنا بيدك اللتين اخترقتهما خطايانا، واللتين أصبحنا اليوم قادرتين على الإمساك بآدم وحواء لإخراجهما من مثنى الأموات.

دعنا نصبح نحن أيضاً قديسين بين ذراعيك، ذلك لأن بولس الرسول ما فتى يردد لنا قائلاً إن الحياة المسيحية إنما هي أن نعيش "فيك" أي في أحضانك!

وإذا مررنا في فترات لا نرغب فيها كثيراً أن نبذل أنفسنا، خذنا يا يسوع وأمسك بنا كي تحقق فينا ما تحلم به منذ الأزل، أي أن تجعل منا قديسين حقيقيين وقديسات حقيقيات، نحف قداسة، لا نختلف كثيراً عن مريم، أمك وأمننا.



عذراء فلاديمير"

تُسمَّى هذه الأيقونة "حامية روسيا"، إذ بشفاعتها أنقذت العناية الإلهية هذا البلد من العديد من الحرائق وأعمال النهب مثل أيقونة عذراء بلدة "تشيسستوكوفا" Czestochowa .

وقد كتبها(رسمها) رسام يوناني مجهول في بداية القرن الثاني عشر، ثم نُقلت حوالي سنة ١١٨٣ من القسطنطينية إلى كييف، وبعد عشرين عاماً إلى مدينة فلاديمير، حيث اكتسبت اسمها. وبقيت هناك حتى عام ١٣٩٩. ثم تمّ نقلها إلى موسكو حيث لا تزال موجودة إلى اليوم (في متحف "ترتياكوف").

أمّا مدينة فلاديمير، فإنها تقع على مسافة ٢٠٠ كلم إلى الشمال الشرقي من موسكو، وقد أخذت اسمها من أمير كييف "فلاديمير" (٩٨٠-١٠١٥) الذي أدخل الدين المسيحي إلى أوكرانيا، وكانت تسمّى آنذاك "روس" (وهو اسم لا علاقة له بكلمة "روسيا" أي موسكويا القديمة).

لماذا لا تبتسم أبداً الوجوه التي تمثلها الأيقونات؟

بما أننا اعتدنا التأمل في أسرار الفرح والحزن والمجد من خلال المسبحة الوردية، أصبحنا نعتبر تلقائيًا ميلاد يسوع حدثاً مفرحاً، في حين أنّ وجهه الذي شوّهه إكليل الشوك يبدو لنا وكأنه وحده يلخص كل آلامه.

لا وجود لهذا الطابع المزدوج في ذهن رسّامي الأيقونات. عندما يرسمون أيقونة ميلاد المسيح، يضعون الطفل الوليد في مغارة سوداء ترمز إلى القبر المقدّس حيث سيوضع في نهاية حياته. أمّا القمط، فإنّها ترمز إلى الكفن الذي سينهض منه المسيح قائماً من الموت.

إنّ أيقونة "عذراء الحنان" المسماة "عذراء فلاديمير" لا تبتسم، شأنها شأن الطفل الذي تحمله. وبذلكِ رنا وجهها الرصين بما فعلناه بابنها الذي صلبته خطايانا.

وعلى العكس، إنّ المسيح الذي يظهر في الأيقونات مسمّراً على خشبة الصليب لا يبدو وكأنه يتألم كثيراً، إنّه عظيم الأخبار الذي ورد ذكره في الرسالة إلى العبرانيين، والذي يقمّ لأبيه إلى الأبد ذبيحة الخلاص. وهو يوحى بأنّه أصبح مذكاً ممجّداً. لنتذكر الصليب الموجود في كنيسة القديس داميان الصغيرة، والذي وقف أمامه القديس فرنسيس الأسيزي فسمع المسيح يقول له: "أذهب يا فرنسيس وأعدّ بناء كنيسة التي هي على وشك الانهيار".

لا تزال الأيقونات تساعد الآلاف من المسيحيين على أن يعيشوا في حضور المسيح، فالأيقونة تمثّل دائماً وجهاً ينظر إلينا. وحتى إذا كان المسيح مرسوماً رسماً جانبيّاً، نشاهد دائماً عينيه، لأنّ المقصود هو أن نتركه ينظر إلينا أكثر من أن ننظر نحن إليه. وإذا وضعنا أيقونة في منزلنا، فذلك لكي نعيش بقدر أكبر تحت نظرة المسيح القائم من بين الأموات.

"اللهم أرجعنا وأثر علينا بوجهك فنخلص" (المزمور ٤/٨٠).

الفصل الأول

والدة الإله

"مباركة ثمرة بطنك!" (لوقا ١/٢٤)

إن مصدر جميع مزايا مريم يكمن في كونها اختيرت، دون أن تكون أهلاً، لتكون أمَّ الله.

أولاً: إعلان مجمع "أفسس"

أعلن مجمع أفسس رسمياً عام ٤٣١ عقيدة "أمومة مريم الإلهية"، في حين كان بطريرك القسطنطينية نسطوريوس يرفض بعنف لقب: "والدة الإله" (ثيوطوكوس) الذي أطلقه الشعب على مريم بدافع من التقوى. وكان يقول: "كيف يمكن أن تكون لله أم؟ التسمية الوحيدة الممكن إعطاؤها لمريم هي: "أم المسيح" (خرستوتوكوس).

وعلى العكس، كان كيرلس مطران الإسكندرية يصرّح أنّ كلمة "ثيوطوكوس" تليق تماماً بمريم، إذ لا توجد في يسوع المسيح شخصيتان، إحداهما إلهية والأخرى بشرية، بل شخص واحد، هو شخص ابنِ الأب الأزلي ذاته الذي منحه مريم جسداً.

ومتلما تسمّى المرأة أمّاً لابنها في حين لم تخلق روحه، كذلك من الحقّ أن تُسمّى مريم أمّاً لابن الله مع أنّها بالطبع لم تلد ألوهيته.

عام 431 اجتمع في أفسس، في كنيسة كانت تسمّى منذ ذلك الوقت "ثيوطوكوس"، وأيدوا موقف المطران كيرلس الإسكندري.

ويلاحظ أنّ هذا الإعلان المجعني يشكل تأكيداً حول المسيح أكثر منه حول مريم. فالمجمع، عندما أعلن أنّ مريم هي "والدة الإله" أراد على نحو خاص أن يبرز الوحدة العميقة الكائنة في المسيح بين طبيعته الإلهية وطبيعته البشرية. وهذه الوحدة هي من القوة بحيث لا تعني سوى وجود شخص واحد فيه: شخصه الإلهي، وهذا الشخص هو الابن الوحيد الذي أنجبته مريم، بالطبع دون أن تلد ألوهيته.

وبعد انقضاء عشرين سنة، التأم مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ وأوضح أنّ الوحدة العميقة الكائنة في المسيح بين طبيعته الإلهية وطبيعته البشرية ينبغي ألا تدفعنا إلى عدم التمييز بينهما: فيسوع في الوقت ذاته إله كامل وإنسان كامل.

حقيقتان متكاملتان يؤمن بهما جميع المسيحيين (كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت وأنكليكان)، ومن شأنهما إنارة أية دراسة لاهوتية تتناول مريم. فالطفل الذي حملته مريم وأنجبته وربّته، مع كونه ابن الله بالذات، قد عاش كلياً أوضاعنا البشرية. (فيلبي ٦/٢-٨).

ثانياً: أساس "مزايا" مريم

تطرق الأنكليكاني "نيومان" إلى كل ما ينتج عن هذه العقيدة الأساسية، فانتهى به التفكير إلى قبول سائر المزايا التي خصّت بها الكنيسة الكاثوليكية مريم (الحبل بلا دنس، انتقال جسد العذراء إلى السماء).

ومن جملة ما قاله: "المهم هو أن ندرك تماماً الحقيقة الجوهرية التالية الواردة في قانون الإيمان: إنه (المسيح) مولود من العذراء مريم". وتابع قائلاً: "عندما تترسّخ فينا القناعة بأنّ مريم حبلت بالأزلي وأرضعته وحملته طفلاً صغيراً، أيكفينا وضع حدّ لهذا السيل من الأفكار التي تحتويها تلك العقيدة؟ (...). فعندما أعلن الرسل حقيقة تجسد ابن الله برزت فكرة جديدة وتعاطفٌ جديد وإيمانٌ جديد (...). ولكن، عندما

أدركت البشرية تمام الإدراك، علاوة على ذلك، أن لهذا الإله المتجسد أمًا، تدفق أمامها هنا نبعٌ ثانٍ من الأفكار، نبعٌ كان مجهولاً من قبل ولا مثيل له. وحقيقته كون مريم أم الله مستقلةً كلياً عن حقيقة تجسد الله. فيسوع المسيح إنما هو الله الذي تواضع، أما مريم فإنها امرأة ارتقت إلى الأعلى من بين جميع النساء".

وفي الواقع، مريم هي أروع خليقة أنتجها الجنس البشري على الإطلاق. فالمسيح، مع كونه يتمتع بطبيعة بشرية، ليس شخصاً بشرياً بل هو شخصٌ ابن الله بالذات، الذي جاء إلى الأرض ليخلصنا. والطبيعة البشرية التي يضطلع بها لها طابع ذكوري، غير أن ماهيته العميقة تكمن في كونه شخصاً الكلمة الأزلي ذاته الذي يتعدى أي تمييز جنسي.

يصحّ القول، إذًا، بالنسبة إلى كل مسيحي: إن الشخص البشري الأكثر إرضاءً والأكثر إتقاناً هو شخص المرأة. جاء هذا التأكيد في أفسس قبل أن توجد الحركات النسائية!

ثالثاً: المكان المركزي لجسد المسيح في تحقيق خلاصنا

أيتها العذراء مريم، أم الله، لقد حملت في أحشائك ذلك الذي لا يسعه الكون لكي يصبح واحداً منا.

عندما نحیی مريم ونسميها "والدة الإله" نتذكر الدور الرئيسي الذي لعبه جسد المسيح، ولا يزال يلعبه، في تحقيق خلاصنا. ففي مريم، أخذ الله عينين مثل عيوننا لينظر إلينا ويبتسم لنا، ومن أحشائها خرجت في ليلة الميلاد يدا يسوع اللتان شفتا في وقت لاحق العديد من المرضى، قبل أن يتم تثبيتهما بالمسامير على خشبة الصليب وقبل أن تخرجا من القبر صباح يوم الفصح، حيتين إلى الأبد.

كي لا نتعجب من المكانة الاستثنائية التي تحتلها مريم في الفكر المسيحي، لنبدأ بالتأمل في الطريقة التي قرّر الله أن يخلصنا بواسطتها وأن يدخلنا في حميمته الإلهية.

لأجل ذلك، قرر الأب أن يقدم لنا جسد ابنه طعاماً، الجسد الذي ولد في بيت لحم من العذراء مريم. فقال لهم يسوع: "إذا لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشرّبوا دمه، فلن تكون فيكم الحياة" (يوحنا ٦/٥٣).

يمكن بالطبع أن نتصور طريقة أخرى لتحقيق مخطط الله. ألم يكن من الأسهل أن يرسل الله نفحة روحه القدوس مباشرة إلى قلوب جميع الناس ذوي الإرادة الصالحة؟ وللاستفادة من تأثيره، كان يكفي أن تفتح القلوب لقبوله عن طريق بعض التمارين من الخشوع الداخلي... من هذا المنظور، تُضحى ممارسة الأسرار عديمة الجدوى كلياً... ويقتصر فعلها على الاستبطان عند الذين لا يستطيعونه بأنفسهم.

رابعاً: الروح القدس أعطى لنا بجسد المسيح

يؤمن المسيحيون بجسارة بأن مخطط الله يختلف عن ذلك اختلافاً كلياً، إذ إنه ببسوع، وفيه، قرّر الأب أن يسكب روحه القدوس في قلوب أبنائه، ليشركهم في حياته. إنه "المسيح" أي الذي "مسيح" بروح الله، وتشرّب به إلى حدّ أنه أصبح قادراً على سكب بجزارة على جميع الذين يقترّبون منه بثقة وحباً!

يشكل جسد المسيح حقاً القناة التي تمرّ عبرها جميع النعم الإلهية.

وكان يسوع، في شفائه لمرضى زمنه، يجمع في العديد من الأحيان القول بالفعل. فقد وضع إصبعه في أذني رجل أصمّ أبكم، وتفتّ ولمس لسانه، ثم رفع عينيه نحو السماء وقال له: "افتح" أي انفتح (مرقس ٣٣/٧-٣٤). كما أنه أخذ يد ابنة يائيروس ليحييها، وقال لها: "طلينا قوم"، أي "يا صبية قومي" (مرقس ٤١/٥).

يا له من تعليم رائع يفهمنا به يسوع أنه سيواصل شفائنا في المستقبل عن طريق الاتصال بجسده المقدس.

أجل، فكلما تقرّبنا من أحد الأسرار المقدسة، يأتي يسوع نفسه ليلاقينا، ويأخذنا بيديه ليشركنا بقدر أكبر في حياته بصفته ابن الله القائم من الأموات.

وكلما حصل شفاء عجائبي في العالم، يكون المسيح قد تدخل شخصياً في جسم المريض وأعطاه "جرعة زائدة" من الروح القدس ليستعيد صحته. كان يسوع دائماً يشفي المريض أو يخلص الممسوس بواسطة إصبع الله أي روحه القدوس (متى ٢٨/١٢، ولوقا ٢٠/١١).

لا ينسكب روح الله بدون وساطة المسيح في إنسانيته المقدسة. فعندما أكون في كنيسة أمام القربان المقدس، أجتو أمام جسد المسيح القائم من الأموات مسكن الروح القدس بكليته، فينشر جسد المسيح هذا الروح في أرجاء العالم.

وقد أكدت تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني أنه حتى عندما يتلقى إنسانٌ غير مسيحيّ بعض نفحات من هذا الروح، فإنّ ذلك يتحقق عن طريق جسد المسيح المولود من العذراء مريم، والمسمّر على الصليب، والقائم من بين الأموات في يوم الفصح.

حقاً إنّ سرّ الإيمان هو سرٌّ عظيم!

فخلاصنا لم يتمّ بسبب انتشار الإنجيل، أي بشرى الحب الرائعة التي جاء يسوع ليعلنها فحسب، بل هو، وبشكل خاص، يتمّ ويتحقق أيضاً بتدفق الروح القدس الذي يعبر حتماً بجسد المسيح ليبلغ إلينا.

تعيد أيقونات مريم إلى أذهان المسيحيين سرّ التجسد الراسخ في قلب إيمانهم. وسواء أكانت مريم تحمل طفلها في ذراعيها أم على ركبتيها، فإنّها تدلنا على يسوع، المصدر الدائم لخلاصنا، والثمرة المباركة لأحسانها. وتدعونا أيضاً إلى الاستفادة بقدر أكبر من الكنز الخارق، الذي أعطانا الله إياه عندما وضع بين أيدينا جسد المسيح، بعد أن صنعه في أحسانها. إنه هو وحده الذي يخلصنا، هو حقاً يسوع، الله يخلص!

* * *

* للحوار في الفرقة:

- ١- ما هي المكانة التي تحتلها مريم العذراء في صلاتنا؟
- ٢- هل نعيش، بما يكفي من الواقعية، اتحادنا بجسد المسيح المولود من العذراء مريم؟ هل نعتقد أن المسيح يأخذنا حقاً ببيده في هذا الاتحاد؟ إنهما يدا القائم من الأموات، لكنهما يدا يسوع.
- ٣- ما هي أيقونات العذراء- أو صورها أو تماثيلها- التي نفضلها؟ هل هناك مظاهر لتقوى مريمية أبعدتنا عن مريم؟

* للحوار بين الزوجين :

"يمكن بدء هذا الحوار بصلاة لمريم العذراء"

- ١- ما هو تاريخ علاقاتنا الشخصية مع مريم؟ ما هي الأمور التي اقترنت بيقيننا أو كانت موضع شكوكنا وأسئلتنا؟
- ٢- هل هناك ظروف نلتجئ فيها إلى مريم بقدر أكبر؟ هل تشكل مريم على الأخص بالنسبة إلينا حضوراً أو مثلاً أو شفيعاً؟ أو شيئاً آخر؟

+ صلاة لاجتماع الفرقة

(إنجيل لوقا ١/٢-١٤)

"في ذلك الزمان، أمر القيصر أغسطس بإحصاء جميع أهل المعمور. وجرى هذا الإحصاء الأول إذ كان كيرينوس حاكماً في سورية، فذهب جميع الناس ليكتتب كل واحد في مدينته. وصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، فقد كان من بيت داود وذريته، ليكتتب ومريم خطيبته، وكانت حاملاً.

وبينما هما فيها حان وقت ولادتها، فولدت ابنها البكر، فقمّطته وأضجعتة في مذود، لأنه لم يكن لهما موضع في الفندق.

وكان في تلك الناحية رعاة يبيتون في البرية، يتناوبون السهر في الليل على رعيتهم. ففاجأهم ملاك الرب وأشرق مجد الرب حولهم، فخافوا خوفاً شديداً. فقال لهم الملاك: "لا تخافوا، إني أبشركم بفرح عظيم يعمّ الشعب بأجمعه: وُلد لكم مخلص في مدينة داود، وهو المسيح الرب. وإليكم هذه العلامة: ستجدون طفلاً مقمّطاً مضجعا في مذود". وانضم إلى الملاك بغتة جمهور من جند السماء يسبحون الله فيقولون: "المجد لله في العلى! والسلام في الأرض لأهل رضاه!"

الابن البكر

يذكر الإنجيل أنّ مريم ولدت في بيت لحم ابنها البكر (لوقا ٧/٢). تفترض كلمة "بكر"، في لغاتنا الحديثة، وجودَ ولدٍ ثانٍ، بيد أن الأمر يختلف في لغات الشرق القديم، فتسمية "بكر" تُطلق دائماً على أول مولود سواء كان له إخوة أم لا. ونورد على سبيل المثال الكتابة الآتية المدوّنة على ضريح مصري: "توفيت عند إنجابها ولدها البكر".

لا يعني إذاً، نصّ لوقا الإنجيلي أنّ يسوع كان له إخوة، ونعلم أنّ الإنجيليين الذين تكلموا عن "إخوة" يسوع (متى ٤٦/١٢ - مرقس ٣١/٣ - لوقا ١٩/٨)، إنّما كانوا يترجمون من العبرية أو الآرامية كلمة لا تعني سوى "أقارب".

إلاّ أنّ كُتّاب العهد الجديد، باستعمالهم المتكرر لفظة "بكر" للإشارة إلى يسوع، "بكر الخلائق كلها" (كولوسي ١٥/١) أو "بكر من قام من بين الأموات" (كولوسي ١/١٨)، يعيدون إلى أذهاننا أن يسوع هو "بكر لإخوة كثيرين" (رومة ٢٩/٨) وصَفْتُهُم الرسالة إلى العبرانيين بأنهم "جماعةُ الأَبكار المكتوبة أسماؤهم في السماوات" (عب ٢٣/١٢)، ففي العهد الجديد نحن جميعاً "أبناء أَبكار" إذ إنّنا أعضاء يسوع الذي هو الابن البكر بالذات!

إنّنا إخوة يسوع بصفتنا أعضاءه، وأصبحت مريم أمّاً لجمهور من الأولاد عهد بهم إليها ابنها البكر المصلوب.

+ صلاة ليتورجية للاحتفال بالقديسة مريم أم الله (أول كانون الثاني)

لنتضرّع بفرح إلى المسيح "الله معنا" الذي ولدته العذراء:

اللازمة : يا يسوع، يا ابن العذراء مريم، استجب لنا!

- أنت الذي أعطى العذراء مريم فرح الأمومة، امنح الوالدين القدرة على أن يفرحوا بأولادهم.
- أنت الذي عاش طفلاً صغيراً في الناصرة، اجعل الأطفال ينمون في حبّ الله الأب.
- أنت الذي يريد أن يجعل من الجنس البشري شعباً لله، احفظ الأمم من روح التفرقة.
- أنت الذي جاء ليرسخ ملكوت البرّ والسلام، ادعم جهودنا لأجل الإتحاد الأخوي.
- أنت الذي اختار أن يولد في نور هذا العالم، امنح الذين يموتون أن يولدوا في النور الأبدي.

لنصلّ:

أيها الإله العليّ القدير، لقد منحتَ الجنسَ البشريّ ثرواتِ الخلاص الأبدي من خلال الأمومة البتولية للقديسة مريم. دعنا نشعر بشفاة تلك التي أتاحت لنا أن نستقبل مُبدع الحياة، يسوع المسيح ابنك وربنا الذي يملك معك ومع الروح القدس، إلى أبد الأبد. آمين.

* * *

نصوص:

■ رُحِّلَ مَحْتَقَرُونَ

لم تكن مهنة الرعاة تحظى باحترام أكابر القوم، وكانت تُصنَّف، حسبما ورد في أحد الأقوال المأثورة، بين "حرف اللصوص" التي لا يجوز لليهودي الشريف أن يسمح بتشغيل ابنه فيها مخافة وصمه بالعار. كما أنّ موقف الحاخامين كان قاسياً تجاه هؤلاء الرعاة الذين تبعدهم طبيعته حياتهم الترحلية عن المجمع وعن ممارسة الطقوس وعن نفوذ الحاخامين أنفسهم.

أمّا بالنسبة إلى القديس لوقا، بشير الفقراء، فالرعاة هم هؤلاء "الأطفال" الذين أراد الله أن يكشف سرّه لهم (١٢/١٠) لأنه ليس لديهم أيّ غرور يحجبهم عن نعمته. وعندما اختارت مريم لنفسها، في الحقب اللاحقة، من يشهد لظهورها على الأرض (في لورد ولاسالييت ويون مان وفاطمة...)، توجّهت هي أيضاً إلى أناس متواضعين، إلى رعاة، إلى الذين هم أكثر شبيهاً برعاة بيت لحم. (هنري كافاريل، "خذ امرأتك مريم إلى بيتك"، النار الجديدة، ١٩٨٣)

Henri Caffarel, *Prends chez toi Marie ton épouse*, Ed. Feu nouveau 1983.

■ "لم يكن لهما موضع في المنزل (في الكاتاليم)"، لوقا ٧/٢

ما هو "الكاتاليم"؟ تتأرجح آراء المفسرين بين نظريتين:

١- إنه "الخان" حيث تبيت القوافل العابرة ويستطيع كل الناس أن يجدوا سقفاً ينامون تحته أو يربطون فيه مواشيتهم، كما ورد في أرميا (١٧/٤١) حيث توقف يوحنا ومن معه في موقع يدعى كيمهام بالقرب من بيت لحم.

٢- أو هو عبارة عن قاعة ضيافة (مضافة) للإقامة فيها "كالعلية" التي تمّ إعدادها للعشاء السري، والتي هي أيضاً "كاتاليم" (لوقا ١١/٢٢). ويدل هذا المثل الأخير وغيره من الأمثلة على أنه كان لتلك الكلمة معنى أوسع: مكان للاستقبال والضيافة.

وما يجب استبعاده هو ترجمة هذه الكلمة بـ "فندق"، كما لا يزال يفعل بعض المؤلفين، علماً أنّ لوقا الإنجيلي، عندما أراد الإشارة إلى فندق يستقبل الناس مقابل أجور، استعمل كلمة "بانديون" (٣٤/١٠) Pandocheion فصاحب الفندق الشرير هو من أعمال فلكلور القرون الوسطى.

الواضح هو أنّه "لم يكن لهما موضع" في مسكن طبيعي، واستعمال كلمة "مذود" يوحي بوجود إسطليل. ويبدو السبب الذي حال دون استقبال العائلة المقدسة ليس ازدحام الناس الناتج عن عملية الإحصاء، بل حالة مريم التي كانت على وشك الولادة. وقد ترجم "ديلبيك" Delebecque الجملة المذكورة بقوله: لأنه لم يكن مكانهما في الفندق. أمّا بالنسبة إلى الترجمة الثانية: "لا مكان لهما في المضافة" فيستنتج منها أنّ العائلة المقدسة، التي لم يتوفر لها محل في القاعة العامة التي تشكل البيت ذاته (متى ١١/٢)، وجدت مكاناً منزوياً للولادة في غرفة مجاورة تُستخدم كزريبة، كما توحي بذلك كلمة "مذود".

أمّا إذا أخذنا بالنظرية الفائلة إنّهما لم يجدا مكاناً في "الخان"، فيمكن الافتراض أنّهما لجأ إلى مأوى عارض، قد يكون مغارة بيت لحم الشهيرة.

(رينه لورانتان: "إنجيل طفولة المسيح"، ١٩٨٢)

(René Laurentin, *Les Evangiles de l'enfance du Christ*, 1982)

■ ما من دين علق مثل هذه الأهمية على الجسد

لو طُلبَ إليّ أن احتفظ بكلمة واحدة تتعلق بالمسيحية، ما هي الكلمة التي سأختارها؟ ربّ هامس يهمس لي: "الحب". هذا طبيعي، غير أن الكلمة لا تزال تتصف بطابع تجريدي غير دقيق، إذ كما قال البابا يوحنا بولس الثاني للشباب: يسوع فقط يمثل في شخصه ما تعنيه كلمة "حب". أمّا الكلمة التي احتفظت بها، فهي "الجسد"! وذلك بدون أيّ تردّد. سوف تستغرب أيّها القارئ هذا الاختيار وتتهمني بأنّي أفترق إلى السموّ والروحانية والتصوّف. إذا، اتبعني فقط لمسافة قصيرة.

يتيح لي الجسد أن استذكر حقائق إيماني وهي:

- جسد يسوع الطبيعي الذي أخذه من مريم.
 - الجسد الروحاني للمسيح القائم من الأموات وهو كنيسته.
 - الجسد السري الذي يعطينا إياه يسوع في الإفخارستيا.
 - "جسد" الكتب المقدسة التي يجعلنا المسيح نذكره بواسطتها.
 - جسد الفقراء الذين يجب عليّ، أن أطعمهم واكسوهم بدافع المحبة.
 - جسدي أنا الذي يتيح لي أن أحبّ والذي انتظر قيامته المجيدة.
- أيوجد "حبّ" بدون كل ذلك؟ عندما تقع الخطيئة، تكون دائماً ضد "الجسد" على مختلف أشكاله (١ قورنثس ١٢/١١).

وخلاصة القول، إنّ لديّ في كنز إيماني روعتين تلخصان كل شيء: إنهما مريم والإفخارستيا.

ولكن، اطمئن أيها القارئ، لن أمنحك "درساً في الورع والتقوى" حتى أبلغ إلى خاتمة جميلة تتضمن مقطعاً من البسالة، إنّ ما أقوله لك هنا جديّ مثل سائر ما تبقى. فقد تحدّثتِ المجمع الكبيرة عن يسوع عندما تحدّثت عن مريم، والصمت حول مريم هو خطأ تجاه يسوع.

مريم هي المرأة التي تجسّد يسوع في جسمها. إذا نسيت ذلك، تقع في أفكار تجريدية تقوية، فيتبه دينك في الغموض فاقداً حدوده، وتشرّد صلاتك في الغيوم، أو تتركز على شخصك بالذات، وتغوص أبحاثك في كتب لا تشبع جوعك. إنّ ما تريده ليس كتاباً بل "عمانوئيل"، ليس الحبّ بشكله العام بل صديقاً، ليس تركيز ذهنك على ذاتك بل اتخاذ القلب محوراً دون أي شيء آخر، ليس التهام كتاب بل التهام "جسد"، ليس وقوفاً أمام باب مغلق بل الغور داخل شق. ردّد مع الشاعر هذه الصلاة الجميلة إلى الله، أبي المسيح المصلوب، قائلاً: اشرح لنا كتابك المفتوح بضربة رمح! واشكر مريم لمنحها إياك جسداً من جسدها. فهي لم تلد كتاباً مقدساً ولا أفكاراً ولا قيماً، بل ولدت طفلاً هو "الإنسان الجديد". لا تحدّ حنوّ مستقتر الكحول، لتقوم بعمل مضرّ مؤدّب، فتسعى في آلية التقطير، إلى الحصول على بعض نقط من "محلول المسيحية المركز"، لتضعه على مندليك، وترمي البقايا مع النفايات... فالمهمّ هو ما ترميه، أي الجسد! المسيحية ليست خلاصة أو جوهرًا، إنّها وجود أو بالأحرى كائن موجود. لا تذهب إلى كاتمندو عاصمة "النيبال" ولا إلى محششة أفيون، لأنّ ما تبحث عنه موجود في مذود بيت لحم. كنت تصعد وكان ينزل، فأخذك من يدك ليقودك إلى المكان الصالح، برفقته ورفقة أمه. غُدّ أدرجك وبدلّ طريقك حتى لو كان طريق ورعك، فهو الطريق الأكثر خطورة، طريق أوهامك. الله وحده إنسانيّ." (اندرية مانارانش، "حب يسمّى يسوع"، ١٩٨٦)

André Manaranche, Un Amour Nommé Jésus, 1986

■ هداية أم الله

(في القصيدة الآتية، تغني ماري روجيه، المعروفة باسم ماري نويل، والتي ولدت في مدينة "أوكسير" Auxerre عام ١٨٨٣، وماتت فيها عام ١٩٦٧، تغني الحوار الرائع الذي جرى بين مريم وطفلها، فقد رزقت ابناً لم تكن تتوقعه، وأعطته فماّ ويدين لم يكن ليستطيع خلاصنا بدونهما).

• يا إلهي النائم ضعيفاً بين ذراعيّ، يا بنيّ المستلقي دافئاً على قلبي الخافق، أعبد هذه الروعة التي بين يديّ، والتي وهبتي إياها يا الله وأهدد لها مدهوشة.

لم يكن عنديّ ابنٌ يا إلهي، لكوني عذراء، وفي هذه الحالة المتواضعة، ما هي الفرحة المزهرة التي كانت ستولد مني؟ ولكن أنت أيها العليّ القدير أعطيتني إياها.

ماذا أردّ لك، أنا التي وقعت عليّ نعمتُك؟ أيّها الإله، إنني ابتسم خجلة لأنّه كانت عندي أيضاً، أنا الصغيرة المحدودة، كانت عندي نعمة وأعطيتك إياها.

يا إلهي، لم يكن عندك فمٌ لتحدّث بواسطته إلى الضالين في هذا العالم... فمك الرضيع الذي التفت نحو نديّ، أنا التي أعطيتك إياه يا بنيّ.

يا إلهي، لم تكن لديك يدٌ لتشفى بإصبعها أجسامهم المسكينّة التعبّة... يدك الشبيهة ببرعم مغلق، وبوردة خجولة، أنا التي أعطيتك إياها يا بنيّ.

يا إلهي، لم يكن لديك جسد لتكسر معهم خبز العشاء... جسدك الذي صنّعه في الربيع، أنا التي أعطيتك إياه يا بنيّ.

يا إلهي، لم يكن لديك موت لتخلّص العالم... يا للألم! فهناك، ذات مساء، موتك البشري، أنا التي أعطيتك إياه يا صغيري.

(ورديّة الأفراح، ١٩٣٠)

■ صلاة التبشير

إنّ الصيغة المستعملة عادة لتلاوة هذه الصلاة لا تراعي سير سرّ التجسد فهي تذكر منذ عبارتها الأولى "أنّ العذراء حبلت بفعل الروح القدس" في حين إنها لم تكن قد أعطت موافقتها بعد.

نقترح هنا استخدام الصيغة الآتية التي وضعتها "مارت روبان" Marthe Robin والتي تبدو أكثر عقلانيّة:

- حمل ملاك الرب البشارة إلى مريم بأنّها ستصبح أمّ المخلّص.

- فقالت مريم: "أنا أمة الرب، فليكنّ لي كما قلت".

- الكلمة صار بشراً بفعل الروح القدس وسكن بيننا.

نسألك يا ربّ أن تسكب نعمتك في نفوسنا، حتى، بعدما عرفنا من بشارة الملاك تجسد ابنك يسوع المسيح، ننقاد بألامه وصليبه إلى مجد قيامته، بربنا يسوع المسيح.

(راجع قصة صلاة التبشير في الملحق)

* * *



Vierge de Miséricorde

Jean Miralhat (1394-1457)

Pénitents Noirs-Nice

Ed. Abbaye d'En-Calcat

عذراء الرحمة

لم تحظ أية شعائر تقوية في القرون الوسطى بالشعبية التي اتّسمت بها الشعائر نحو "عذراء الرحمة"، التي تبسط معطفها الواقي لتؤوي فيه أولادها. وقد ألهمت عددًا لا يحصى من الأعمال الفنيّة.

تبدو العذراء ذات قامة عملاقة بالنسبة إلى الذين تحميمهم، وليس لهذا التفاوت أيّ طابع جارح لفناني ذلك العهد، إذ اعتادوا التعبير عن المراتب الروحية باعتمادهم فروقات بين مقاييس الشخصيات. ومثل ذلك ما نشاهده في الروافد التي يستند إليها المذبح، حيث يظهر فيها المتبرّعون على شكل أقزام متضرّعين، يحميمهم عملاقة محاطة رؤوسهم بهالة.

وفي بعض اللوحات، تظهر العذراء حاملة يسوع الطفل على ساعدها الأيسر، والملائكة هم الذين يبسطون معطفها. ولكن في أغلب الأحيان، تمّد العذراء ذراعيها لتحيط بردائها كل الذين يلجأون إليها: أعضاء الرهبانية الواحدة أو الفرقة الواحدة أو الجماعة الواحدة. وفي أغلب الأحيان أيضًا، كما يتبين من هذه اللوحة، يقسم المسيحيون إلى إكليريكيين وإلى علمانيين، بحيث يحتفظ الإكليريكيون بمكان الشرف إلى يمين العذراء. ويظهر في اللوحة: البابا والتاج على رأسه، والكرادلة وقبعاتهم، والمطران وتاجه، والراهب وشعره الإكليلي. أما في جهة العلمانيين، فيشاهد الأمبراطور والملك والسيد الإقطاعي والبورجوازيون والقرويون.

وتعبّر الصورة بطريقة شعبية عن السرّ الذي أبرزه القديس لوي- ماري غرينيون دو مونفور، والذي يشرح فيه أننا جميعًا حاضرون "في مريم". فكلما تجمّعنا حولها كالأطفال، استطاعت تأهيلنا وتنميتنا على صورة ابنها البكر.

من أقوال ماري بودوان كروا Marie Baudouin- Croix

تنطوي سواعد العذراء فتشكل مهدًا لأطفالها. فعليك أن تكثر اللجوء إليها لتستريح.

يا مريم، درع الحنان، احمي ضعفي.

إقبل أن تكون كالجنين في أحشاء مريم كي تولد في النهاية في بيتها.

أحاطت أحضان مريم العذراء بـ "لا نهاية" الله.

تستطيع العذراء التي تلتحف بالشمس أن تصف لك النجوم. لكنّها تفضّل أن تقدّم لك خمارها الذي كان غطاء الطفل الحبيب.

يا مريم، خذي بين ذراعيك مثلما أراك في الأيقونة تضمّين يسوع إلى صدرك.

يا لفرحة الناصرة الكبيرة عندما ضحك يوسف ومريم من خطوات الله الأولى!

أيتها العذراء، إنك ممثلةٌ نعمةً، في جسدك يرصّع الروحُ الجوهرة الأزليّة الأنقى والأصفى.

الفصل الثاني أم الكنيسة والبشر

"هذه أمك" (يوحنا ٢٧/١٩)

كان البابا يوحنا بولس الثاني يرى، وهو في سنّ العشرين، أنّ تقوى الشعب البولوني تجاه "سيدة تشيستوكوفا" أدت إلى حجب الارتباط الرئيسي بالمسيح الذي هو أساس الحياة المسيحية. ونعلم من خلال محادثاته مع أندري فروسار، أنّه وافق في وقت لاحق على شعائر تكريم الشعب المسيحي للعدراء مريم، وذلك نتيجة قراءته للكتاب المعنون "بحث في تكريم القديسة العذراء الحقيقي" والذي ألفه في القرن الثامن عشر لوي-ماري غرينيون دي مونفور. واستمرّ في موقفه فوضع حرف "M" كبيراً على شعاره الحبري، ليعلن جهازة المكانة التي سيعطيها - أو بالأحرى سيتركها- لمريم في خدمته الكهنوتية.

هنا تكمن المسألة كلها في المكانة الواجب تركها لمريم ... سواء علّمنا أم لم نعلم، سواء شئنا أم لم نشأ، فقد دُعيت مريم لتلعب دوراً رئيسياً في تحقيق خلاصنا، ألا وهو دور الأم. وقد أعلن يسوع هذه الأمومة في لحظة مهيبه من حياته، في لحظة احتضاره! إذ قبل أن يقول: "تمّ كل شيء" (يوحنا ٢٨/١٩)، منحنا أمّه بالذات كأمّ لنا (يوحنا ٢٧/١٩). وعندما تُدرك الأسرة المسيحية أهميّة آخر هديّة قدّمها المسيح في الفقرة الأخيرة من وصيته، لن نهمل أبداً اللجوء إلى العذراء لطلب عونها وخدماتها.

ذلك لأنّ مريم ليست كائنًا يُحبّنا حبّ الأمّ فحسب، إنّها تلدنا، إنّها، بالتعاون مع الروح القدس، تنمّي فينا الحياة الإلهية، حياة يسوع. وما دما لا ندرك ذلك، سنتساءل، مثل كارول فوجتيليا في سنّ شبابه، لماذا يخصّص المسيحيون هذا المكان المرموق لمريم العذراء. كما أنّنا لن نفهم السبب الذي جعل الأسر الأولى، التي اجتمعت حول الأب كافاريل، تحرص على اعتماد تسمية "فرق السيدة" لحركتها.

أولاً: أم لا ينقطع حبّها نحونا

ابتسامه مستمرة

خلال حياة مريم الأرضية، لم يكن باستطاعتها أن تكون في آن واحد في الناصرة وفي قانا الجليل. أمّا الآن، وقد دخلت إلى الأبد، بجسدها وروحها، في مجد السماء، فقد تحرّرت كلياً من حدود المكان والزمان، وهي حاضرة قلبياً في كافة أعضاء جسد المسيح السري. وتكريم العذراء لا يعني الإكثار من تلاوة السلام الملائكي، بل أن نتعوّد العيش في كنف ابتسامه مريم.

لقد تجلّى وجه مريم منذ انتقالها إلى السماء. "وعيناها الممثلتان رحمة ورافة" اللتان ما فتئتا تلقيان نظرهما علينا، كما ننشد إليها في صلاة "السلام عليك أيتها الملكة"، إنّما هما عينان تشعّان ابتسامه رائعة. "أمّاه، إنّني أقوم بكل شيء بصورة أفضل عندما أعلم أنّك هنا": هذه العبارة التي يقولها الأطفال تعبّر على طريقتها عمّاً تؤول إليه الحياة المسيحية عندما تنيرها ابتسامه أمّنا مريم.

تلك الابتسامه هي التي لمحتها برناديت سوبيرو في "الورد" عام ١٨٥٨ وتيريز مارتان في "ليزيو" عام ١٨٨٣. لا شك أنّ آية منهما لم تتأمّل كلّ حنان الأمّ النابع من مريم، ولو شاهدتها لكانتا ماتتا من السعادة. إنّ مدى هذا الحبّ اللامتناهي، الذي يكتّنه لنا الله ومريم العذراء وجميع القديسين والقديسات، لن نراه في النهاية بصورة تامة، إلّا في السماء.

بيد أنّ هاتين الفتاتين الفرنسيّتين شاهدتا بعضاً من ابتسامه مريم فذهلنا. ومما قالته برناديت: "إنّها رائعة جميلة إلى درجة أنّ كل من يراها يتمنّى أن يموت على الفور، ليذهب ويراها من جديد!". وفي ١٦ تموز ١٨٥٨، عيد سيّدة الكرمل، ضاعفت مريم عدد ابتساماتها إلى صديقتها الصغيرة لتودّعها. وإحياءً لذكرى هذا الحدث، اتخذ كرمل لورد اسم "كرمل ابتسامه مريم".

وعندما بلغت تيريز مارتان سنّ العاشرة، حظيت بدورها بالإعجاب نفسه. ففي عيد العنصرة في ١٣ أيار ١٨٨٣، شاهدت مريم تبتسم لها لوضع ثوان، وقد دونت هذا الحدث في وقت لاحق قائلة: "فجأة بدت لي القديسة العذراء جميلة جميلة إلى حدّ أنني لم أر مثل هذا الجمال قط، فقد كان وجهها يشعّ طيبةً وحناناً يفوقان الوصف، غير أنّ ما اخترقني إلى أعماقي هو ابتسامتها الساحرة".

ومن البديهي أنّه لم يخطر على بال تيريز أن تنمّي لنفسها رؤية هذا النوع من التجلّي الاستثنائي، فهناك العديد من كبار رسل السيدة مريم، الذين يعيشون حياة مكثفة بحضورها، ولكن لم يحظوا قط بظهورها لهم! إنّما يكتفون بوضع صورتها أو أيقونة تمثلها أمام عيونهم، ليتذكروا أنّ مريم إنّما هي أمّ مُلنفة ومُبتسمة، في حياتهم مثلما في قانا الجليل.

أيقونة لحنان الأب

إنّ توجّه المسيحيين نحو مريم لا يحول أبداً دون تفكيرهم بالله، بل بالعكس، كلما قلنا لمريم: "أمّاه"، استطعنا أن نقول لأبينا الذي في السماوات: "أبتاه". إذا أردنا أن نعيش كأطفال تجاه الله - ويسوع يشجّعنا على ذلك بقوة (متى ١/١٨) - فمن الأنسب لنا ألا ننسى تلك التي وهبنا إياها كأمّ. والله يريد إلهامنا بواسطتها ما يكرّره باطّراد في الكتاب المقدس، وهو أنّه "بابا" الذي يحبنا مثل "ماما".

إنّ كلمة "بابا" التي يستعملها الأطفال ملائمة تماماً، وتتّفق كلياً مع التعابير المستخدمة في الكتاب المقدس، والتي ترد كلما أراد الله أن يقدّم لنا "بطاقته الشخصية"، إن صحّ القول. فقد احتوت نصوصٌ عديدة من العهد القديم (سفر الخروج ٦/٣٤ - المزمور ١٥/٨٦ - المزمور ٨/١٠٣) كلمات تصف الله بأنّه رحيم وحنون وممتلئ حباً وأمانة، وهي كلمات من أصل عبريّ توحى "ببيت الرحم" و"باحضان" الأم لطفلها. نعم، لإله الكتاب المقدس أحشاء أمّ، ويتصرف كالأمّ، وأحد أدوار مريم - وليس أقلّها أهمية - هو أن تكشف لنا صفات الأمومة تلك عند الله. إنّها حقاً ابتسامه الأم التي يوجّهها الله إلينا. وبما أنّ مريم تبتسم لنا باستمرار، فمن أبسط قواعد التهذيب أن نعاملها بالمثل، فنخصّها بأجمل ابتساماتنا. وهكذا سنفرح بالتأكيد قلبها الذي هو قلب أمّ.

كانت كلمة "وردية" تدل في بداية الأمر على إكليل الورد الذي اعتاد المسيحيون وضعه على رأس تماثيل العذراء لتكريم ملكة السماء. أمّا اليوم، فإنها تشير إلى إكليل حبات المسبحة التي نستخدمها عندما نتضرّع إلى مريم. يعتقد بعض المسيحيين أنّ كل "سلام ملائكي" هو ابتسامه يوجّهونها إلى أمهم في السماء، تحية لها وطلباً لمساعدتها.

ثانياً: أمّ ما فتئت تلدنا

ليست مريم أمّنا بالمعنى العاطفي للكلمة فحسب، فهي تحبنا محبة الأم، وتبتسم باطّراد لكلّ من أولادها. إنّها حقاً أمّنا، بالمعنى الفعلي، إذ تلدنا إلى الحياة الإلهية.

حضان مريم هو حضان أمّ

إنّ لوي-ماري غرينيون دي مونفور، وهو الرسول المريمي العظيم الذي عاش في القرن الثامن عشر، تبنّى أفكار القرون السابقة ولخصها مردداً أنّنا "في مريم"، وأنّ مريم إنّما هي "قالب حيّ" يريد الله أن يؤلّه فيه أولاده. فقد قال هذا الرسول: "لقد تجسّد ابن الله فيها وأصبح إنساناً، وفيها يصبح البشر أبناءً لله". واستطرد يفسر أنّ المسيح والمسيحيين لا يشكلون سوى جسد واحد، فهو الرأس ونحن الأعضاء (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس ٢٧/١٢ - الرسالة إلى أهل أفسس ١/٤). وختم بقوله: إذا كانت مريم أنجبت المسيح، فإنها تواصل بشكلٍ سرّيّ إنجاب جميع أعضاء جسده الكنسي (بحث في التقوى الحقيقية، الفقرة ٣٢). إليكم الشروحات التي أعطاها البابا يوحنا بولس الثاني لـ "اندريه فروسار" حول ما اكتشفه من قراءة البحث المذكور: "أذكر أنّي حملته معي لمدة طويلة، حتى في معمل كربونات الصوديوم، إلى حدّ أنّ غلافه الجميل تلوّث بالكس. كنت دائماً أعيد بعض المقاطع منه. وبينما كنت في السابق ابتعد عن التقوى المريميّة خشية أن تحجب المسيح بدلاً من أن تعطيه الأولويّة، أدركت على ضوء قراءتي للبحث الذي كتبه غرينيون أنّ الحقيقة تختلف عن ذلك كلياً. فعلاقتنا الداخلية بأمّ الله تنجم عضوياً عن ارتباطنا بسرّ المسيح، ولذلك، فلا مجال لأن يحجب الواحد الآخر عن أنظارتنا".

وإذا أمكن للقديس بولس أن يدعو أهل قورنتس أبناءه لأنه ولداهم في المسيح (١ قورنتس ٤/١٥)، وأن يدعو أهل غلاطية أبناءه الصغار لأنه تمخض بهم مرة أخرى (غلاطية ٤/١٩) حتى يتكوّن فيهم المسيح، فيصبح القول من باب أولى إنّ مريم تلد كل يوم أبناء الله حتى يتشكل فيهم ابنها يسوع المسيح في تمام سنه (بحث غرينيون، الفقرة ٣٣). إنها تغتبط لرؤية المسيح ينمو فينا، وتعمل لأجل ذلك. كيف؟ بتعاونها مع الروح القدس.

مريم هي معاونة الروح القدس المميّزة

إنّ ولادة المسيح في النفوس تتم بفعل الروح القدس. إلا أنّ الله قرّر منذ الأزل أن تتمّ هذه الولادة بالتعاون مع مريم.

فقد لعبت مريم دوراً جوهرياً في تأنّس الله، إذ كانت "المربيّة المتخصّصة" ليسوع كلمة الله في تلقينه العادات البشريّة. فعلمته الكلام والمشى والصلاة، وعلمته - وهو موقد المحبّة، المولود من موقد المحبّة - أن يُحبّ بقلبٍ بشريّ! (راجع الفصل الخامس).

وبعد أن ضمّ الروح القدس إليه معاونة كهذه، لم يعد يستغني أبداً عن خدماتها! فاستمرّ في استخدام جميع إمكانيّاتها، ليشكّل على مرّ الأجيال كنيسة الربّ.

كان يروق للأب ماكسيميليان كولب أن يتأمّل هذا الاتحاد الذي لا تفصم عراه، بين الروح القدس ومريم، في عملية خلاصنا. ومن أقواله: "يشكل الروح القدس صورة الابن البكر يسوع، في مريم البتول الطاهرة، وبها. والاتّحاد بين مريم والروح القدس لا يمكن وصفه، وهو من الكمال بحيث يجعل الروح القدس لا يتصرّف إلاّ بواسطة مريم الطاهرة عروسته. إنّها شفيعّة جميع نعم الروح القدس" (٢٨ تموز ١٩٣٥).

حقاً! تعيش مريم سماءها على الأرض. ولكونها أمّاً لعائلة كبيرة، فهي تواصل تعاونها مع الروح القدس لأجل ولادة ونموّ الحياة الإلهية في قلوب أبنائها. وبعد أن عمّلت مريم لأجل تأنّس يسوع "كلمة الله"، فهي تعمل لأجل تأليه البشر.

كيف نعيش تلك العلاقة الحيويّة مع والدتنا السماويّة؟ نعيشها باستسلامنا لها بكل ثقة وبتكرارنا كلمات غرينيون ذاتها: "إنّي بكلّيتي لك أيتها العذراء مريم، وكل ما هو لي هو لك". هذا هو المعنى الحقيقي للتكريس المريمي.

إنّ من يكرّس نفسه لمريم يُعلن بفرح حالته الموضوعيّة "أنّه في مريم"، فيعترف أنّ مريم كُلفت منذ الأزل بالسهر على نموّ يسوع في قلبه، ويستطيع أن يقول بعزم متنام: "إنّما المسيح هو الذي يعيش فيّ ويسود عليّ". جاء في الإنجيل أنّ التلميذ الذي كان يحبه يسوع أخذ إلى بيته الأمّ التي أعطاه إياها معلّمه وهو على الصليب، أخذها هذا التلميذ فأصبحت "خاصّته".

دعونا إذاً نحذو حذو هذا التلميذ! ولكي نفتح باب قلبنا على مصراعيه استعداداً لحضور المسيح القائم، ولانتشار روحه فينا، نحتاج إلى تأثير مريم كام، مثلما حصل في العليّة يوم العنصرة.

* للحوار في الفرقة:

- ١- كيف نعيش سرّ أمومة مريم الروحيّة؟
- ٢- كيف يمكن أن تحبّنا مريم الحبّ ذاته الذي أحبّته به يسوع، ولا تزال؟
- ٣- هل يروق لنا أن ننلو المسبحة من وقت لآخر؟

* للحوار بين الزوجين:

ماذا نستطيع أن نفعل لكي تبدو مريم بقدر أكبر أمّاً لأسرتنا؟

✦ صلاة لاجتماع الفرقة

(إنجيل يوحنا ٢٥/١٩-٢٧)

هناك عند صليب يسوع وقفت أمه وأخت أمه مريم، امرأة (كلاوبا)، ومريم المجدلية. فرأى يسوع أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب إليه، فقال لأمه: "أيتها المرأة، هذا ابنك". ثم قال للتلميذ: "هذه أمك"، فأخذها التلميذ إلى بيته من تلك الساعة.

هذه أمك!

إن أهمية هذا التصريح تبدو جلية، إذ تركز الانتباه على ثلاثة عناصر من النص الإنجيلي:

- هذا الحوار بين يسوع ومريم ويوحنا هو مركز المشاهد الخمسة التي تصف صلب يسوع. فهو بين مشهد اللوحة المدون عليها: "يسوع الناصري، ملك اليهود" ومشهد القميص غير المخيط، من جهة، وبين مشهد صرخة يسوع: "أنا عطشان" ومشهد طعنة الرمح، من جهة أخرى.

- استخدم يوحنا في هذا النص التعابير ذاتها التي استخدمها في التصريحات العلنية المدونة في إنجيله، إذ قال: رأى يسوع أمه وإلى جانبها التلميذ الحبيب إليه، فقال لأمه: "أيتها المرأة هذا ابنك"، ثم قال للتلميذ: "هذه أمك" (٢٦/١٩-٢٧).

ونجد طريقة الإعلان ذاتها في مقاطع أخرى من الإنجيل الرابع: رأى يوحنا المعمدان يسوع أتياً نحوه فقال: "هوذا حمل الله" (٢٩/١)، والأسلوب يتكرر أيضاً في الآيات التالية: ٣٥/١-٣٦ و ٤٧/١.

- بعد أن روى يوحنا الإنجيلي كيف وهب يسوع مريم للتلميذ الحبيب إليه، أضاف قائلاً: "كان يسوع يعلم أن كل شيء قد تم" (الآية ٢٨). وهذا يعني بعبارة أخرى: لكي يتم كل شيء، كان يجب أن تُمنح مريم إلى الكنيسة كام. وهكذا، فإن نص الإنجيل ذاته يركز على هذا العطاء الرفيع الذي خصنا به يسوع عندما وهبنا مريم كام.

سيّدة التطويات

أيتها القديسة مريم العذراء، أنتِ تساعديننا على استقبال عظة الجبل، تلك التطويات التي يتحدث الناس عنها كثيراً ويطبّقونها قليلاً، لأنها تسير ضدّ النّيار، كما لو كان نهر "الغاف" يصعد من الوادي، من لورد، إلى جبال "البيرينه" الثلجية.

أيتها القديسة مريم العذراء، أنتِ تساعديننا لنصبح شعب "الكلمة" (الإلهية)، شعب الإفخارستيا، شعب الرسالة. فما فائدة السير بسرعة متزايدة إذا كنا نجهل الهدف؟ وما الفائدة من زيادة الإنتاج إذا كنا لا نحسن تقاسمه؟ وما الفائدة التي يجنيها الفقراء إن اغتنوا، والأغنياء إن افتقروا، إذا كانوا لا يعرفون كيف يعيشون مثل المسيح؟

أيتها القديسة مريم العذراء، أنتِ تعلّمين سخاءك عالماً يهيمن عليه المال. أنتِ تبرزين شفافيتك لعالم بريقه زائف وخداع. أنتِ تقدّمين نقاوتك لعالم متمرّد هازئ مدّس. أنتِ تقاومين بحنانك عالم العنف والبغض.

أيتها القديسة مريم العذراء، كان عليك أن تبتكري، كلّ يوم، الطريقة التي تقولين بها "نعم" لله. وكان عليك أن تُعيدي، كلّ يوم، اكتشاف الله في حياتك بطريقة تختلف تماماً عن التي كانت ملحوظة لديك. علمينا أن نكون كلّ يوم، لا صفحة تمّت طباعتها، بل صفحة بيضاء، حيث يرسم عليها روح الله الروائع التي يصنعها فينا.

(الكريديال اتشغاري، بمناسبة رحلة حج إلى لورد)

مريم تفكر في كل واحد منا

إنها ترى الله وجهًا لوجه، إلى أقصى حدّ ممكن بعد المسيح. ولا شك أنّها من خلال رؤيتها تلك، باعتبارها موكلة بنا، تتمتع بقدرة تامة على معرفتنا ورؤيتنا كما يرانا الله.

إنّ جميع أولاد هذه الأم حاضرون في ذهنها، وعددهم الضخم لا يمنعا من إحصائهم ومن الالتفات إلى كلّ منهم. ولا شك أنّ الله يمنحها من حدّة البصر ما يكفي لسبر أغوار أعماق الأسرار الغامضة، بحيث تصبح حاضرة لنا أكثر من حضورنا لأنفسنا.

(الأب الدومينيكي روغاسيان برنار Rogatien Bernard، "سرّ مريم")

نصوص:

■ مسيرة امرأة ملحدة نحو مريم

وُلدت تاتيانا غوريتشيفا في ليننغراد عام ١٩٤٧، وأصبحت في السابعة عشرة من عمرها مسؤولة عن الشبيبة الشيوعية (كومسومول) في الاتحاد السوفياتي بأسره. وفي السادسة والعشرين من عمرها، أخذت تمارس رياضة اليوغا، وعلى هذه الطريق التقاها الله. وبعد أن عاشت تاتيانا المأساة المدمرة لحضارة الإلحاد، وجدت مبدأ اتزانها في مريم، فأسست مع نساء أخريات أول حركة نسائية روسية تحت اسم "مريم"! وقد عبّرت عن انطلاقة اكتشافها في مقابلة أجريت معها بتاريخ ١٥ آذار ١٩٨٢، ونقل بعض ما قالته خلالها في السطور التالية:

" ذات يوم، بينما كنت منشغلة في التأمل، تلوّث الصلاة الربّية لأنّها مسموحة في جلسات اليوغا بصفتها ضربًا من التأمل. تلوّثها ولم أكن أعتقد قط بوجود إله في السماوات. إلاّ أنّي بعد تلاوتها خمس أو ست مرات، لم أفهم فحسب وإنما تحققت فجأة أنّ هذا الأب موجود حقًا، وأنّه يحبني، وأنّه هو الذي خلق كلّ شيء حولي. وقد لازمني هذا الوعي ولم يتركني حتى هذا اليوم، إذ اكتشفت نفسي كامرأة.

وهكذا في روسيا الحالية، يأتي العديد من الشبان والشابات نحو الله. وفي وقت لاحق بالنسبة إليّ، ترافقت تلك التجربة الروحية بتجربة أخرى، هي دخولي التدريجي في الليتورجيا، فكانت تجربة وعي كنسي. واكتشفت نفسي ككائن بشريّ وكامرأة في اتحاد مع والدة الإله.

إنّ هذه التجربة من الاتصال والحبّ والعلاقة والحوار مع مريم، هي التي تشكل أساس حياتنا في روسيا. وعندما وصلت إلى الأقطار الغربية، لاحظت، وفقًا للأوساط المسيحية التي كنت فيها، أنّ مريم أمّ الله كانت تشكل مفهومًا صرفًا جدًّا ومثاليًا، وأحيانًا يثير الخوف، وغالبًا يُقابل بالرفض.

أمّا في بلدنا، فإنّ ذلك مستحيل على الإطلاق، لأنّ والدة الإله "نيوطوكوس" ليست، بالنسبة إلينا، مفهومًا ولا مثلاً أعلى. إنّها أقرب إلينا من أنفسنا، إنّها بالنسبة إلينا شخصٌ حقيقي، بل شخصٌ كامل، شخصٌ يتجلى ويساعدنا على تحقيق تجلينا بالذات".

(تاتيانا غوريتشيفا، حركة نساء ليننغراد)

■ المسبحة

كان الموسيقار موزارت يصلي المسبحة تعبيرًا عن شكره لنجاحاته العديدة، وكان رنيه لاينك René Laënnec، الحائز على جائزة الطبّ والجراحة ومخترع السماعة الطبيّة، يتلو أيضًا المسبحة كل يوم.

كذلك أوزانام، أستاذ الأدب المقارن في جامعة السوربون ومؤسس جمعية القديس منصور دي بول، اعترف بالتأثير الحاسم للعالم الفيزيائي أمبير Ampère عليه، عندما رآه يصليّ المسبحة في كنيسة القديس استفانوس.

كما أنّ المارشال فوش كان يتلو المسبحة كلّ يوم حتى في أيام المعارك الكبيرة، كذلك فعل المارشال لوكيير إبّان الحرب العالمية الأخيرة.

لقد أوصت مريم العذراء في ظهوراتها الأخيرة أن تتلى المسبحة. وفي مدينة لورد عام ١٨٥٨، ظهرت ١٨ مرة إلى برناديت وهي تمسك بالمسبحة الوردية في يديها. وفي مدينة فاطمة عام ١٩١٧، أطلقت على نفسها تسمية "سيّدة الوردية".

أيتها العذراء الطاهرة التي ستلدين جميع أبناء الله إلى النعمة
والمجد، تكرمي باستقبالنا في أحضانك الوالدية وبتكويننا في
داخلك حتى نصبح شبيهين بيسوع.



La plus belle qui jamais fut au monde

Maître de Moulins (Jean Perréal ?) vers 1498-1499. Détail
Sacristie de la cathédrale de Moulins (Allier)

العذراء عند الظهيرة

نشعر أحياناً بحاجة إلى الالتفات نحو مريم لمجرّد التمتع بالنظر إليها، وتحيتها، والإعجاب بها، والقول إنّها أمّ رائعة، مباركة بين جميع نساء الأرض. وهذا ما فعله الكاتب بول كلوديل في إحدى قصائده التي نقلها في السطور التالية:

إنّه الظهر. أرى الكنيسة مفتوحة وعليّ أن أدخل. يا أمّ يسوع المسيح، لم أت لأصلي.

ليس لديّ ما أقدمه أو ما أطلبه، أتيت فقط أيتها الأمّ لأنظر إليك، لأنظر إليك فأبكي من السعادة وأدرك أنّي ابنك وأنتِ هنا. أتيت لفترة وجيزة فقط، بينما كل شيء يتوقف.

إنّه الظهر، وأنا برفقتك يا مريم في هذا المكان الذي أنت فيه.

لن أقول شيئاً بل أنظر إلى وجهك وأترك قلبي يعنى بلغته الخاصة.

لن أقول شيئاً، إنّما أغني فقط لأنّ قلبي ممتلئٌ جدّاً، مثل الشحرور الذي يتابع فكرته مغرّداً ما يشبه مقاطع غنائية عفوية.

أنتِ الجميلة الطاهرة، أنتِ المرأة التي استعديت مكانتها بالنعمة.

أنتِ الخليفة في مكانتها الأولى وفي انفتاحها الكامل كما خرجت من الله في صباح روعتها الأصلية.

أنتِ البرينة الفائقة الوصف لأنك أمّ يسوع المسيح، الذي هو الحقيقة بين يديك، والرجاء الوحيد، والثمرة الفريدة.

لأنك المرأة وجنة عدن للحنان القديم المنسي، وصاحبة النظرة التي تصيب القلب فجأة فتجعل الدموع تنهمر.

لأنك أنفذتني وأنفذت بلادي التي كانت بالنسبة إليك، أمراً في البال، كما أنا في بالك.

لأنك، في الوقت الذي تحطم فيه كل شيء، تدخّلت منقذة بلادي مرّة أخرى.

لأنها فترة الظهيرة ولأننا في نهار هذا اليوم. لأنك هنا إلى الأبد، ولمجرّد كونك "مريم"، ولمجرد وجودك. نشكرك يا أمّ يسوع المسيح!

(بول كلوديل، أصغي يا ابنتي)

الفصل الثالث

الملتنة نعمة

(افرحي يا ملتنة نعمة ... لوقا ٢٨/١)

لنميّر بين الفكرتين التاليتين:

الحبل البتولي بالمسيح: هذه الواقعة تتمثل في كون مريم حبلت بيسوع دون أن تقيم علاقة جنسية مع خطيبها يوسف. وقد ورد ذلك في إنجيل متى (١٨/١-٢٥) وفي إنجيل لوقا (٢٦/١-٣٨). يُحتفل بهذا السرّ في الخامس والعشرين من آذار، يوم عيد البشارة وهي عقيدة أمنت بها الكنيسة منذ نشأتها.

الحبل بلا دنس بمريم: وهو إنعامٌ أعطي لمريم أمّ الله، يؤكّد أنّ مريم بريئة من كل خطيئة، بما في ذلك الخطيئة الأصلية، منذ اللحظة التي حبلت بها أمّها. ويُحتفل بهذا السرّ في الثامن أو التاسع من كانون الأول، عيد الحبل بلا دنس. وهذه العقيدة أعلنها البابا بيّوس التاسع في قراره البابوي الصادر بتاريخ ٨ كانون الأول ١٨٥٤: "الحبل بمريم العذراء بدون وصمة الخطيئة الأصلية".

* * *

إنّ الحبل بلا دنس بمريم العذراء حقيقة لم تعها الكنيسة إلاّ تدريجيًا، إنّه توكيد انطلق من القاعدة إن صحّ القول.

فالشعب المسيحي، من فرط تلاوته للسلام الملائكي وتكراره لعبارة: "السلام عليك يا مريم، يا ملتنة نعمة"، انتهى إلى الاعتقاد بأنّ "الامتلاء بالنعمة" المذكور يتفق مع القداسة الاستثنائية ونفي أية خطيئة.

إلاّ أنّ اللاهوتيين لم يلبثوا أن أبدوا قلقهم: أليس من مغالاة في هذه التقوى الشعبية؟ وما دامت الكتب المقدسة تبين صراحة أنّ يسوع هو مخلص البشرية برمتها، فهل يُعقل أن تكون مريم قد أفلتت من لسعة الخطيئة التي شملت الخليقة بأسرها؟ لم يتجرأ كل من القديس برنار في القرن الثاني عشر، والقديس الأكويني في القرن اللاحق، إعلان ذلك، برغم تعبهما القويّ للعذراء.

في نهاية القرن الثالث عشر، ولحسن الحظ، استطاع اللاهوتي الفرنسيكاني "دونس سكوت" أن يجد نقطة التمييز التي تتيح التوفيق بين الحبل بلا دنس بمريم وخلص العالم الشامل بالمسيح. فقد جاء في تفسيره أنّ خلاص مريم قد تمّ فعلاً مثل خلاصنا من قبل المسيح، إلاّ أنّه لم يكن خلاصها من الخطيئة بل حفاظاً عليها منها، أي أنّ مريم لم تفلت من عملية خلاصنا التي أنجزها المسيح بالأمه وقيامته، بل كانت أكبر مستفيدة منها.

ترسّخت هذه الفكرة شيئاً فشيئاً في أذهان اللاهوتيين، إلى أن رسخت في الشعب المسيحيّ بأسره، حتى إنّ البابا بيّوس التاسع أعلن رسميًّا بتاريخ ٨ كانون الأول ١٨٥٤ عقيدة الحبل بلا دنس بالعذراء مريم.

أولاً: إنعامٌ مدهش

ظاهرة! بدون أدنى خطيئة! هناك عناءٌ لم تعرفه مريم قط، هو مخالفة ضميرها والتغافل عن إلهام الروح القدس.

لم تقع مريم أبداً، مثلما نقع نحن، في مأزق الخيار بين الخير الذي نريد صنّعه والشرّ الذي يُغرنا (رومة ١٥/٧). وهذا لا يعني أنّ الميل إلى عصيان مشيئة الله لم يساورها قط، إذ إنّها كانت تتمتع بحريّة كاملة، شأنها شأن يسوع.

ولكن، بما أنّها لم تتأثر بعواقب الخطيئة الأصلية، فلم تكن لحرّيتها تلك السهولة الرهيبة - التي لنا - لارتكاب أعمال الشرّ ... تلك السهولة، بعيداً عن كونها اكتمالاً لحرّيتنا، هي جرحٌ.

لذلك استطاعت مريم بفضل هذا الإنعام، كما استطاع يسوع، أن تُنجز في كل لحظة مشيئة الأب "بكل قلبها وكل ذهنها وكل قواها".

ثانياً: تواضع لا مثيل له

لا تشعر مريم، وهي في السماء، بأيّ إحساس من التفوق "إزاءنا! فهي تعلم تماماً أنّ هذا الإنعام مُنح لها دون استحقاق مسبق من طرفها. فقد أعطاه الله إياها مجاناً، نظراً إلى الدور الخارق المخصّص لها، والذي يتمثل في إعطاء جسد لابن الله الأب، أي حمله في أحشائها مدة تسعة أشهر، وإرضاعه بحليبها وتمكينه، بالاشتراك مع يوسف، من أن ينمو في جميع المجالات، "في الحكمة والقامة والحظوة" عند الله والناس (لوقا ٥٢/٢).

من الخطأ، إذًا، الاعتقاد بأنّ مريم استحققت أن تكون أمّ الله بسبب تواضعها. ففي نشيد مريم (تعظم نفسي الرب) شكرت الله "لأنّه عطف على أمته الحقيرة". لم تدّع أنّه تمّ اختيارها "بسبب" حقاقتها، وأنها "استحققت" بفضل تواضعها أن تستجلب إليها النظرة الإلهية. بل بالعكس، اختيرت، بدون استحقاق، لتكون أمّ الله، وتلقّت كجائزة وكهدية أولى قدرًا من التواضع لا يضاهي، هيأها لمهمتها القادمة وأتاح لها أن تتلقى من دون تكبر سائر نعم حياتها.

هل كانت مريم تعي صراحة قداستها الاستثنائية؟ لا يوجد ما يسمح بتأكيد ذلك، ولكن يمكن الاعتقاد أنها اقتنعت بالطابع المجاني لكل ما منحها الله من عطايا، حتى إنها قاومت باستمرار تجربة التّبجّج بذلك، ولو بأبسط ما يكون.

أليست هذه هي الطريقة المناسبة التي نستطيع أن نقاوم بها نزعة التباهي بمواهبنا؟ إنّ أفضل واقٍ من الكبرياء إنّما هو فعل الشكر!

ثالثاً: إنعام لا يُبعُد مريم عنّا

إنّ طهارة مريم الفريدة لا تفصلها عنّا، بل تتيح لها الاقتراب منّا بقدر أكبر. ربّ قائل يقول إنّه يجب، لكي نفهم الشخص، أن نكون قد اختبرنا تجاربه نفسها، وأن نكون قد ارتكبنا حماقاته عينها الخ... لكنّ هذا القول غير أكيد إطلاقاً، فلا ضرورة مثلاً لأن نتعاطى الفسق لنفهم المومسات، كما نلاحظ في العديد من الأحيان أنّ التفاهم رائع بين الأجداد وأحفادهم، رغم انعدام خبرة النّسوج عند الأحفاد. فالقلب هو الذي يفهم! وكلّما ازداد القلب طهارة، ارتعش لأفراح الآخرين وأحزانهم. ونذكر هنا ما قاله الكاتب جورج برنانوس في صفحة شهيرة من كتابه بعنوان "يوميات كاهن ريفي": "بما أنّ أمنا مريم أصغر سنّاً من الخطيئة، فإنّها المرأة الوحيدة القادرة على أن تفهمنا كليّاً، فتشفق علينا شفقة تفوق الحدّ، دون أية ذرّة من الغرور!"

ولا تنسى مريم، بطبيعة الحال، أنّها تنتمي إلى سلالتنا، سلالة الخطأة المساكين، وأنّها حُفظت من الشرّ "لأجلنا ولأجل خلاصنا". وكما جاء بوضوح في دستور الكنيسة في وثيقة مجمع الفاتيكان الثاني، "لقد تمّ افتداء مريم بصورة بارزة نظراً إلى استحقاقات ابنها" (نور العالم، الفقرة ٥٣). نعم، تمّ افتداؤها تماماً برحمة الله مثلنا، لا بل أكثر منا!

رابعاً: قداسة تبيّر بالمجد الآتي للكنيسة كلها

كلّنا مدعوون إلى أن نصبح نحن أيضاً، في السماء، "قديسين وبلا عيب" في حضور الربّ (أفسس ٤/١). ونحن لم نحظ بهذا الإنعام مثل مريم منذ اللحظة الأولى من حياتنا، بل سنصبح هكذا كلياً، أي أعضاء كاملين في كنيسة تكون قد أضحت "سنيّة لا شائبة فيها ولا تغضن ولا ما أشبه ذلك، بل مقدّسة بلا عيب" (أفسس ٢٧/٥).

وعلى غرار مريم، سنشعر بفرحة الغوص في محيط الحنان الإلهي اللامحدود، سنشعر بأننا محاطون بحبّ لا مثيل له. وستنغني مع مريم وإلى الأبد برحمة الربّ اللامتناهية. ولن نتوقف عن شكره لأنّه صان مريم

من كل خطيئة، وهي بدورها لن تتوقف عن تسيبحة وحمده لأنه شفانا نهائيًا من كل خطايانا. وسننشد النشيد ذاته الذي أنشدته مريم: تعظم نفسي الرب!

خامسًا : أمُّ نُعْجَبُ بِهَا مِنْذُ الْيَوْمِ

والآن نستطيع، ويجب علينا، أن نتأمل جمال مريم الخارق، وقد سبقنا إلى ذلك عدد لا يحصى من المسيحيين، فكان التحول العجيب في حياتهم.

كانت مريم في غاية البساطة (كلمة "بساطة" بالفرنسيّة مشتقة من اللغة اللاتينية حيث تعني: بدون طيئة). لم تكن منغلقة على نفسها إطلاقًا، بل كانت ملتفتة كليًا نحو الله ونحو الآخرين، ملؤها الرغبة في إرضاء الله ومتنبهة إلى تلبية حاجات إخوتها، وهذا ما رأيناه في قانا الجليل ومع أليصابات.

من المعروف أنّ الطفل الذي ينظر إلى أمّه باستمرار يصبح شبيهًا بها في النهاية. وهكذا، إنّ أجيال المسيحيين الذين كانوا يتلون مسبحتهم الوردية ويتأملون سيّدتنا مريم في أسرار الفرح والألم والمجد التي عاشتها مريم، أصبحوا في النهاية يشبهون والدتهم السماوية دون أن يشعروا بذلك.

وليس من الضروريّ بطبيعة الحال أن نتأمل في مرحلة من مراحل حياة مريم لنستفيد من تلاوة مسبحتها، بل يكفي أن نردّد بلا كلل أنّها "ممتلئة نعمة!" وأن ننظر إليها قائلين لها ما قاله الكاتب كلوديل في قصيدته المشهورة: لأنك هنا للأبد ولمجرّد كونك "مريم" ولمجرّد وجودك، إليك الشكر يا أمّ يسوع المسيح!

* للحوار في الفرقة:

١- خلّافًا لمريم التي نالت منذ بدء حياتها "قدرًا كبيرًا من التواضع - ممّا يشكّل عنصرًا أساسيًا من الحبل بلا دنس - نحن جميعًا، وإلى حدّ ما، أشخاصٌ متكبرون في طريقنا إلى الاهتداء. هذه هي التجربة الأساسية عند كل خليفة، تجربة نستسلم إليها في أغلب الأحيان. فهل نحن مقتنعون بأنّ هذه المعركة ضدّ الكبرياء هي المعركة الحاسمة الواجب خوضها؟

٢- كيف يمكن لمثال مريم ولوجودها أن يساعدانا، نحن "الخطأة المساكين"، على المضيّ قديمًا في طريق التواضع؟

* للحوار بين الزوجين:

١- إنّنا مدعوّان، زوجًا وزوجة، إلى القداسة، قداسة أشخاص متزوّجين يُجابهن عددًا من المصاعب، قداسة "خطأة مساكين" يريد يسوع أن يخلصهم.

كيف يستطيع كلّ منّا، الزوج والزوجة، أن يساعد الآخر في تلك المسيرة نحو القداسة؟ هل نطلب مساعدة الآخرين بما فيه الكفاية؟ وهل نطلب مساعدة الفرقة؟

٢- هل نتضرّع بما فيه الكفاية إلى العذراء الطاهرة لنحصل بواسطتها على نعمة التواضع؟

+ صلاة لاجتماع الفرقة:

(إنجيل لوقا ٢٦/١ - ٣٨)

أرسل الله الملاك جبرائيل إلى مدينة في الجليل تدعى الناصرة، إلى عذراءٍ مخطوبةٍ لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها فقال: "السلام عليك، أيتها الممتلئة نعمة، الربُّ معك". فاضطربت لهذا الكلام وقالت في نفسها: "ما معنى هذا السلام؟" فقال لها الملاك: "يا مريم، لا تخافي، قد نلت حظوة عند الله. فستحملين وتلدن ابناً تسمينه يسوع، فيكون عظيمًا وابنَ العليّ يدعى، ويوليه الله ربنا عرش أبيه داود، ويملك على بيت يعقوب أبد الدهر، ولن يكون لملكه انقضاء". فقالت مريم للملاك: "أنّى يكون هذا ولا أعرف رجلاً؟"

فأجابها الملاك: "إنَّ الروح القدس يحلّ عليك وقدرة العليّ تظنّك، لذلك يكون المولود قدوساً وابن الله يدعى. وإنّ نسيبتك أليصابات قد حبلت هي أيضاً بابن في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك التي كانت تدعى عاقراً. فما من شيء يُعجز الله". فقالت مريم: "أنا أمة الرب، فليكن لي كما قلت". وانصرف الملاك من عندها.

أيتها السيدة

يا سيّدة الشفافية، الله يكلمنا فيك ومن خلالك. امحنينا قلباً بسيطاً، امثنينا سروراً. يا عذراء الـ"نعم" و"تعظم نفسي الرب"، اجعلي قلوبنا شفافة مثل قلبك.

يا سيّدة التواضع، المتسترة بين الجماهير والمحاطة بالسرّ، ساعدينا على أن ننقل البشري إلى العالم، وأن نعوص في سرّ المسيح لنحمل منه شيئاً إلى إخواننا.

يا سيّدة الوفاء، أنت التي ما فتئت "تبحث عن وجه الرب"، أنت التي رضيت بالسرّ وتأمّلته في قلبها، أنت التي عاشت في وفاق وانسجام مع ما تؤمن به، أنت التي كنتِ مثال الثبات في الشدائد، ساعدينا على الوفاء بالتزاماتنا كخدامٍ صالحين أمناء، حتى آخر يوم من حياتنا على الأرض.

"يوحنا بولس الثاني"

هذه الفقرات الثلاث هي ترجمة، على شكل صلاة، لعدّة تأملات ليوحنا بولس الثاني. أولاً، تأمل حول شفافية قلب مريم (بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة برناديت سوبيرو). ثم تأمل حول تواضع مريم (في العظة الملقاة في معبد سيّدة الناصرة، في مدينة بيليم في البرازيل، في شهر تموز ١٩٨٠). وأخيراً تأمل حول الوفاء، وهو موضوع آخر يهتم به بشكل خاص يوحنا بولس الثاني، قد عرضه في العظة التي ألقاها بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٩ في كنيسة سيّدة غوادلوب (المكسيك).

(مجلة "الصلاة"، عدد حزيران ١٩٨١)

نصوص

■ العذراء أصغر سنّاً من الخطيئة

ابتكر الكاتب جورج برنانوس (١٨٨٨-١٩٤٨) أشخاصاً يساهمون في سرّ المسيح "الاحتضار الإلهي"، ومنهم الكاهن الريفّي البسيط الفقير الأصل والذي تجاوزته رعيّته، حيث كان يشعّ عطاءً الله متخطياً نفسه. أصيب بمرض السلّ، فدعاه كاهن "تورسي" إلى أن يتضرّع إلى العذراء وينظر إليها.

- هل تتضرّع إلى مريم العذراء؟

- يا له من سؤال!

- الناس يقولون ذلك ... ولكن هل تصلي إليها كما يجب؟ وبشكل جيد؟ إنها أمّنا، هذا أمر معروف، إنها أمّ الجنس البشري، حواء الجديدة، لكنّها ابنته أيضاً، وقد هدهدها العالم القديم، العالم المتألم، عالم ما قبل النعمة، هدهدها لمدة طويلة على قلبه الحزين - قروناً طويلة - في انتظار غامض وغير مفهوم للعذراء ... بقي قروناً طويلة يحمي بيديه القديمتين المثقلتين بالجرائم، تلك الفتاة الصغيرة الرائعة التي لم يعرف حتى اسمها، فتاة صغيرة، ملكة الملائكة ... وبقيت كذلك، لا تنس! وشعوب القرون الوسطى فهمت كل شيء (...)

لم تحصل القديسة العذراء، لا على انتصار ولا على أعجوبة. ولم يسمح ابنها بأن يلمسها المجد البشري، حتى بطرف جناحه. لم يحي أحدٌ أو يتألم أو يموت بمثل تلك البساطة، وبمثل ذلك الجهل العميق لكرامتها الخاصة بها، علماً بأنّ كرامتها تضعها فوق الملائكة، ذلك لأنّها كانت بدون خطيئة. يا لها من عزلة غريبة! ... كانت نبعاً صافياً نقياً، حتى إنّها لم تستطع أن تعكس في مياهه صورتها بالذات، صورتها المخصّصة

لفرحة الأب دون سواه... يا لها من عزلة مقدسة! الشياطين القدماء الذي ألقمهم الإنسان، والأسياذ والخدم معاً، والشيوخ الرهيبيون الذين قادوا آدم في أول خطاه إلى عتبة العالم الملعون، والمكر والكبرياء، إنك ترى هؤلاء كلهم ينظرون من بُعد إلى تلك المخلوقة الأعجوبة البعيدة عن متناول أيديهم، المنبوعة من دون سلاح. بالطبع، إن جنسنا البشريّ الهزيل ليست له قيمة تذكر، لكنّه يتأثر دائماً بالطفولة ويجعله جهل الصغار يغضّ نظر عينه التي تميّز بين الخير والشر، عينه التي شاهدت الكثير والكثير من الأشياء! إلا أنّ القضية ليست سوى قضية الجهل. والعذراء كانت البراءة. هل تدرك ما نمثل بالنسبة إليها، نحن الجنس البشري؟ بالطبع، إنّها تكره الخطيئة، بيد أنّها لم تختبرها قط، في حين إنّ كبار القديسين لم تنقصهم التجربة بهذا الصدد، حتى فرنسيس الأسيزي نفسه رغم كونه ملائكيًا. إنّ نظرة مريم إلينا هي نظرة طفل، إنّها نظرة فريدة من نوعها ولم يُلق أحد مثلها على عارنا وعلى تعاستنا. نعم يا صغيري، إذا أردت أن تتضرّع إلى مريم كما يجب، عليك أن تشعر بتلك النظرة الملقاة عليك، وهي ليست تمامًا نظرة تسامح - لأنّ التسامح يكون دائماً مرفقاً ببعض التجارب المريرة - إنّها نظرة رافة حنونة، نظرة دهشة متألّمة، إنّها أيضاً شعور لا يمكن تصوّره أو وصفه، يجعل مريم أصغر من الخطيئة وأصغر من العرق الذي تنحدر منه وأصغر كائنات الجنس البشري رغم كونها أمًّا بالنعمة وأمّ النعم.

(جورج برنانوس- يوميات كاهن ريفي)

Georges Bernanos, Journal d'un curé de campagne, P. 256-259

■ مريم حُفظت من الخطيئة

(أخذ "لوثر" طيلة حياته (١٤٨٣-١٥٥٦) بالمعطيات العقائديّة المعمول بها في كنيسة عصره حول مريم، وله العديد من العظات عنها، ومنها العظة التي ألقاها عام ١٥١٧، والتي أعلن فيها إيمانه بالحبّل بالعذراء (بلا دنس).

يُعتقد بكل تقوى أنّ الحبّل بمريم، أي بثّ الروح فيها، قد تمّ بدون أية خطيئة، لأنّه عند حصول ذلك، تمّ تطهيرها من الخطيئة الأصلية وتزيينها بعطايا الله كي تتلقى الروح القدس المبعوث فيها. وهكذا، وفي اللحظة ذاتها التي بدأت فيها حياتها الشخصية، كانت بدون أية خطيئة. وهذا ما عبّر عنه الملاك جبرائيل عندما خاطبها (لوقا ٢٨/١) حسب الترجمة السبعينية للكتاب المقدس) قائلاً: "مباركة أنت بين النساء"، لم يكن بإمكانه أن يقول لها: "مباركة أنت" لو كانت واقعة تحت اللعنة. فمن الصواب والعدل إذاً أن تُحفظ مريم بدون خطيئة، وهي التي سيحمل جسدها المسيح الذي سيتغلب على كلّ خطيئة.

(مارتن لوثر، العظة حول الحبّل بمريم)

(M. Luther, Sermon sur la conception de Marie, P. 288-289)

■ العقيدة المريمية للأب كولب : الطاهرة، أيقونة الروح القدس

لم يذهب الأب ماكسيمليان كولب إلى لورد سوى مرّة واحدة وذلك في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٠، ليطلب إلى مريم أن تبارك رحلته إلى الشرق الأقصى. وكان يرغب في الذهاب إلى هناك منذ أمد طويل ليشكر العذراء التي شفّته من إصابة كانت ستحول دون دخوله الكهنوت، إذ كان الأطباء قد قرروا بتر إبهام يده اليمنى عام ١٩١٤، فشفي بأعجوبة بعد أن غسل إبهامه بمياه من "لورد".

بيد أنّه لم ينتظر حتى سنة ١٩٣٠ ليكرّم مريم الطاهرة. ففي السادس عشر من تشرين الأول ١٩١٧، وقبل رسامته كاهناً ببضعة أشهر، جثا راکعاً أمام مذبحها ونذر نفسه لها مع ستة إكليركيين فرنسيسكانيين آخرين. وفي شهر كانون الثاني ١٩٢٢، نشر العدد الأول من مجلة "فارس مريم الطاهرة"، التي نالت رواجاً هائلاً، حتى إنّها صدرت في اليابان عام ١٩٣٠. وأخذ يفكر طيلة حياته - وكان قد سُمّي مجنون السيّدة - في سرّ الحبّل بمريم بلا دنس، وفي كيفية ظهور مريم لبرناديت بتاريخ ٢٥ آذار ١٨٥٨.

وها هو يتساءل: لماذا لم تقلّ العذراء، وقد يكون ذلك أقرب إلى المنطق: "أنا بلا دنس منذ أن حملتني أمي!" ولماذا عرّفت عن نفسها بقولها: "أنا الحبّل بلا دنس"؟

السبب بسيط، فهناك ارتباط وثيق بين مريم والروح القدس، ارتباط قوي، إذ وصفت العذراء نفسها ذلك اليوم في "الورد" بما يستطيع الروح القدس أن يصف نفسه به إلى الأبد. واستطرد الأب كولب يقول: في كُنه حياة الثالوث الأقدس، الأب لا ينقطع عن ولادة ابنه، والابن هو المولود منذ الأزل، والروح القدس هو "ثمرة حبّ الأب والابن"، إنها ولادة أزليّة غير مخلوقة. بعبارة أخرى، إذا كان الابن مولوداً من الأب، فالروح القدس إنّما هو الحبّ الذي يلد به الأب ابنه، وهو "أحشاء الأم" التي لا يتوقف بها عن حبّه وعن ولادته، ذلك لأنّه قبل إنجاب الكائن "وولادته"، يجب "حملّه" في القلب و"حمل" حبّ عظيم نحوه.

لكنّ الروح هو أيضاً الحبّ الذي لا يفنأ الابن "يكُنّه" الله الأب. كولب إذا محقّق تماماً في قوله إنّ الروح هو "الحمل المتدفق حبّاً" في الله. إنّهُ تدفّق الحبّ الذي يُنجب به الأب ابنه، ويعود به الابن نحو أبيه.

وتابع الأب كولب قوله: إنّ مريم هي الخليفة التي استطاع بها الروح القدس أن يُظهر كلّ ما هو قادر عليه، إنّها التحفة التي صنعها، حتى إنّها استطاعت أن تعرّف نفسها إلى برناديت قائلة: "أنا الحبل بلا دنس".

كتب الأب كولب كلّ ما تقدم بتاريخ ١٧ شباط ١٩٤١ قبل اعتقاله ببضع ساعات، في بلدة نيبوكالانوف، كما لو كان يريد ترك وصية مريمية. ولم يسبق له قط أن تكلم بمثل هذا الوضوح عن العلاقة بين الروح القدس ومريم الطاهرة. بيد أنّه كان طوال حياته يُكثر من التشبيهات ليوحى بأنّ ثمة اتحاداً حميماً بين الروح القدس ومريم، فهي عروسه وأداته وأمه وهيكله وشبه تجسيده، أي الخليفة التي يتجلى فيها الروح القدس على أفضل وجه. وكان أيضاً بإمكان الأب كولب أن يصفها بأنّها أيقونة الروح القدس وتجليه.

وإذا ما نظرنا ملياً إلى مريم، ندرك بصورة أفضل أنّ حنان الله نحونا يتصف بشيء من حنان الأم. كما أكّد ذلك العديد من مقاطع العهد القديم: "ترضعون وفي الحضن تُحملون وعلى الركبتين تُدللون. كمن تعزّيه أمّه كذلك أعزّيكم أنا" (أشعيا ١٢/٦٦ و١٣).

"كن أباً لليتامى وبمنزلة زوج لأُمَّهم" (ابن سيراخ ١٠/٤).

"أكون لهم كمن يرفع النير عن فكوكهم" (هوشع ٤/١١).

وقال أيضاً الأب كولب بالحاح: بما أنّ مريم الطاهرة هي كمال أيقونة هذا الحنان، دعونا نتأمّلها ونتمتّع بحبّها الذي هو حبّ أمّ. وإذا فعلنا ذلك فإنّ حنان الروح القدس هو الذي سيحيط بنا ويملأنا ويحوّلنا. ومريم ليست أيقونة الروح القدس فحسب، بل هي معاونته المميزة و"عروسه" و"أُمته" أيضاً.

عندما أعلن يوحنا بولس الثاني الأب كولب قديساً بتاريخ ١٠ تشرين الأول ١٩٨٢، لم يُلزمنا بأن نتبنّى جميع صيغ هذا الشهيد البولوني العظيم، الذي توفّي في معسكر اعتقال "أوسويتش" في الرابع عشر من شهر آب ١٩٤١ بعد أن عرّض نفسه ليجلّ محلّ ربّ عائلةٍ حُكّم عليه مع عدة سجناء، في نطاق عملية ثأر، بالتضوّر جوعاً حتى الموت في زنزانة الجوع. إلا أنّنا سنجنّي فائدة كبيرة من الإمعان بعقيدته، علماً بأنّه كان يحلم بتأسيس أكاديمية مريميّة للتعلم في سرّ العذراء الطاهرة، المنزّهة عن الدنس.

من أقوال المطران فولتون شين:

مريم عذراء وأم، إنّها اللحن الوحيد الذي ينبع من كمان الكون من دون أن ينقطع فيه وتر.



Notre-Dame de Paris
La première image religieuse projetée dans
le monde sur un écran de télévision

السيدة

كلمة "سَيِّدَتْنَا" تنطبق على مريم العذراء، مثلما تنطبق كلمة "سَيِّدْنَا" على المسيح. وقد بوشر باستعمالها عندما راجت التقوى نحو مريم إبان العصور الوسطى بالتحديد، وبدءًا من القرن الثاني عشر في نطاق تقاليد الأدب الغربي، الذي يفرض على الفارس إجلال "السيدة العذراء". وتكريم القديس برناردس للعذراء هو نموذجٌ حيٌّ لتلك التقوى.

وفي ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٤٨، ومن كاتدرائية السيدة (نوتردام) في باريس، وقبل بثّ أول قَدَّاسٍ إلهيٍّ بواسطة التلفزيون، عُرضتْ صورةٌ هذا التمثال على الشاشة.

كان الأب الدومينيكي "بيشار"، المشرف على هذا البثّ، قد اقترح أن تطلق على التمثال المذكور تسمية "ماري ميديا"، وأن يوضع على أجهزة التلفزيون بحيث يساعد المسيحيين على مشاهدة البرامج في إشرافٍ ابتسامية مريم.

إنّ الرسّامين والنحاتين في القرن الرابع عشر، خلافًا لرسامي الأيقونات، أقدموا على تمثيل العذراء وهي تبتسم فخورة بطفلها، ويتواضع تام.

ليست مريم سوى أمة الرّب الحقيقية، التي اختيرت من دون أيّ استحقاق، لتعطي الله وجهًا بشريًا

افرحي يا عروسة لا عروس لها

أخذت المدائح الموجّهة إلى مريم، لدى البيزنطيين، شكلها الأوسع في النشيد الشهير المسمى "أكاشتوس" (أي الذي لا يجلس فيه)، والذي يتلوه المؤمنون بكامله، وهم واقفون، في يوم الجمعة من الأسبوع الخامس للصوم الكبير. ونحن نجهل مؤلفه وتاريخ نظمه على وجه التحديد (القرن السابع والثامن) وهو يتألف من ٢٤ بيتاً، منها ١٢ مكرّسة لطفولة يسوع، و ١٢ لأسرار التجسد.

إنّ كلمة "افرحي" تطابق تمامًا التحية التي وجهها الملاك جبرائيل إلى مريم يوم البشارة، ويستهل أيضاً النشيد المذكور بذات الكلمة: "افرحي، يا من بها يُشرق الفرح".

هناك أيضاً عبارة أخرى تلفت النظر، هي "يا عروسة لا عروس لها". إنّها طريقة للتعبير عن الأمومة الخاصة لمريم، بعد انقضاء بضع عشرات من السنين على المجمع الذي أعطاها لقب "والدة الإله". وفي هذا النشيد كله، يتم تعظيم مريم لا لأجلها بالذات، بل لأجل علاقتها بالمسيح المتأنس:

افرحي يا أمّ الحَمَل والراعي !
 افرحي يا فَمَ الرسل الذي لا يصمت،
 افرحي يا حظيرة للأغنام الناطقة،
 افرحي يا جِراة لا تُغلب للظافرين في الجهاد،
 افرحي يا سلاحاً لصدّ الأعداء غير المنظورين،
 افرحي يا سنّداً وطيداً للإيمان،
 افرحي يا مفتاح أبواب الفردوس،
 افرحي يا سمة للنعمة بهيئة،
 افرحي لأنّ ما في السماء يبتهج مع الأرض،
 افرحي يا من عُرِّيت بها الجحيم،
 افرحي لأنّ ما على الأرض يطرب مع السماوات،
 افرحي يا من ألبسنا بها المجد،
 افرحي يا عروسة لا عروس لها!

(صلاة المدائح- البيت السابع، تسبحة الرعاة)

الفصل الرابع

العذراء مريم

"لا تخف أن تجيء بامرأتك مريم إلى بيتك. إن الذي تحمله هو من الروح القدس" (متى ٢٠/١).

يتضمن الإنجيل مقطعين يرويان لنا، كل بطريقته، أن مريم حبلت بطفلها دون أن تقيم علاقة جنسية مع يوسف (متى ١٨/١-٢٥ ولوقا ٢٦/٢-٣٨).

أثارت هاتان الآيتان سخرية الوثنيين واليهود، وحتى بعض المسيحيين. إلا أن الكنيسة لم تكثرث، وردت على الفور بقولها إن هذا الحبل البتولي بالمسيح إنما هو من المعطيات الأساسية لإيمانها. وقد أكد إغناطيوس الأنطاكي في الرسالة التي كتبها إلى كنيسة إزمير في السنوات الأولى من القرن الثاني "أن إلهنا يسوع المسيح وُلد حقا من عذراء".

هذه الحقيقة التي تعرّضت للطعن منذ البداية، أصبحت بسرعة عقيدة إيمانية، وأعلنت رسمياً في مختلف قوانين إيمان الكنيسة ولا سيما في ما يُسمى "بقانون الرسل" وفي قانون الإيمان الذي أقره مجمع نيقية عام ٣٢٥، حيث جاء: "تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء".

وأخذ الشعب المسيحي يرتل بطمأنينة هذه الجملة من قانون الإيمان مدة قرون. ولكن في نهاية القرن التاسع عشر، ظهرت المنازعة مجدداً إذ أبدت بعض كنائس الإصلاح شكّاً لها في صحة الحبل البتولي ثم انتقلت المنازعة إلى الكنيسة الكاثوليكية حوالي عام ١٩٦٠. (نجد في الملحق رد الكنيسة على الاعتراضات القديمة والحديثة)

إلا أن ذلك لم يمنع الكنيسة من الاستمرار في اعتبار تلك الحقيقة عقيدة أساسية من قانون إيمانها. وتدعونا الكنيسة، تجنّباً للدهشة، إلى أن ندرك مدى ارتباط هذا السرّ بمجمل البشري الإنجيلية، وخاصة بسرّها الرئيسي المتمثل في تجسد الكلمة (رسالة يوحنا الأولى ٢/٤). ذلك بأن الروح القدس يعطى لنا، لا نستطيع أن نؤمن متواضعين بحقائق الكتاب المقدس وحسب، بل لنتمكّن "نوعاً ما" من فهمها أيضاً فنستمتع بها ونعيشها بصورة أفضل.

أولاً: الطفل الذي حملته أمه وُجد قبل والديه!

لم يطلب أحد منا أن يولد، وإن كنا موجودين في هذه الدنيا فلأن أبونا تبادلنا الحب ذات مساء بحنان. فكل منا هو ثمرة عناق جنسي، سواء أكانت عملية حملنا مبرمجة قبل مدة طويلة ومرغوباً فيها، أم مقبولة مجرد قبول. كان من الممكن، إذاً، ألا يكون لنا وجود أبداً، بل يصيبنا أحياناً الدوار عندما نفكر في هذا الأمر.

ومع ذلك، يؤكد المسيحيون بكل جرأة أنه وجد في التاريخ طفل أفلت من هذه القاعدة الأساسية الملازمة للوضع البشري، إذ في ليلة الميلاد كان الطفل يسوع يرقد على تبن المذود. أما السبب فلا يكمن في كون مريم ويوسف تجمعا قبل تسعة أشهر.

وُجد يسوع لأنه قرّر بنفسه أن يأتي إلى الأرض. فالمسيحيون يؤمنون بجسارة أن الطفل يسوع كان موجوداً قبل أبويه، ومنذ الأزل. وقولنا هذا - بطريقة عابرة - يبرز أن هذه العقيدة تتسم بطابع السرية أكثر بكثير من عقيدة حمل يسوع في أحشاء امرأة عذراء.

يسوع ليس خليفة أنجبه والداه. إنه كلمة الله الذي به يُخلق كل شيء باستمرار، إنه ابن الله بالذات الذي جاء إلى الأرض كي يخلصنا. يجدر بالمسيحيين الذين يُصدمون بسرّ الحبل البتولي بيسوع أن يتأملوا أكثر في سرّ التجسد، فلا بد أن يدركوا في نهاية المطاف أن نتيجة هذا السرّ هي الحبل بيسوع بطريقة خارجة عن المألوف. وهناك ارتباط عميق بين سرّ الحمل البتولي وبين السر الذي يتصدّر البشري الإنجيلية، وهو مجيء "عمانويل" (الله معنا) إلى تاريخنا.

لو تمّ الحبلُ ببسوع نتيجةً لعلاقة جنسيّة بين مريم ويوسف، لكان يسوع كائنًا مخلوقًا مثلنا، "طفلاً لأحد الناس" جاء (كلمة الله) وأحاط به وسكن فيه، فلا يعود ابن الله الكائن قبل مجيئه إلى عالمنا.

إنّ هذا التفكير اللاهوتي، كما يلاحظ، لا "ينفي" طابع السريّة الذي يتصف به الحبل البتولي، ولا يحاول إثبات واقعة هذا الحبل. وإيماننا به إنّما هو مبنيّ على نصوص الكتاب المقدس، التي كانت موضوع تأويل الكنيسة منذ قرون عديدة.

إنّ الفكر اللاهوتي الجدير بهذه التسمية لا يحاول أن يجعل تعليم الكنيسة مطابقاً للتيار العصري، كأنّ يقلص مثلاً إلى مجرد رموز جوانب من البشريّ تبدو محيرة. كما أنّه لا يحاول أن يستنتج من إحدى ثوابت الكتاب المقدس حقيقة أخرى، عن طريق الاستنباط المنطقي، بل يسعى إلى إبراز التماسك العميق الذي يربط مختلف نصوص قانون الإيمان بعضها ببعض، ويبيّن، إن صح القول، أنّ أفكار الله منسجمة بعضها مع بعض في ما يصنعه.

وذلك لا يعني أنّ اللاهوت يقتصر على قلة من رجال الفكر الذين تروق لهم ممارسة التمييز الحاذق، ويغالون في تدقيق الأمور! فأبسط القديسين والقديسات أحبوا على مرّ القرون هذا النوع من الاعتبارات، لأنها أتاحت لهم أن يستمتعوا مسبقاً بقدر أكبر بالبشريّ، دون انتظار صعودهم إلى السماء. والمسيح نفسه قال للسامرية: "لو كنت تعرفين عطاء الله!" (يوحنا ٤ / ١٠)، كما أنّه وعد تلاميذه قبل أن يغادرهم قائلاً: "يرشدكم الروح إلى الحق كله" (يوحنا ١٦ / ١٣).

دعونا، إذًا، ننقاد إلى إلهامات الروح القدس، كي نستمتع نحن أيضًا بسر الحبل البتولي، فندرك أنّه يبرز، إن صح القول، علامة ثابتة لحقيقة إيمانيّة أساسيّة في جسد مريم: "الكلمة صار بشرًا وسكن بيننا".

ثانيًا: الله أبرم عهدًا معنا!

يشعر اليوم بعض المسيحيين بالحرّج بسبب سرّ الحبل البتولي، الذي يبدو لهم مناقضًا لكل ما اكتشفوه أو أعادوا اكتشافه، من حيث جمال الاتصال الجنسي كتعبير قويّ عن الحبّ الزوجي، ومن حيث أهمية هذا الاتصال في حياة الزوجين فيميلون على الفور إلى الاعتقاد بأنّ هناك شيئاً ناقصاً في أسرة مريم ويوسف. وسنرى في الفصل اللاحق، خلافاً لذلك، كيف أنّه يمكن للعائلة المقدسة أن تكون قدوة للمتزوجين كافة.

فالعهد الزوجيّ الذي تمّ في الناصرة هو أهم بكثير من العهد الذي يحصل بين الرجل وزوجته، إنّه العهد الذي أبرم إلى الأبد بين كلمة الله وإنسانيّته، وهو اتّحاد لا تُفصم عراه اكتمل في أحشاء مريم البتولية التي كانت "خدرًا زوجيًّا" حقيقيًّا، على حدّ قول آباء الكنيسة في وصفهم هذا العرس الإلهي.

ويجدر بالمسيحيين، بدلاً من حصر اهتمامهم بمسألة انعدام العلاقات الجنسيّة بين مريم ويوسف في بيتهما الزوجي، أن يُعجبوا بالعهد الخارق الذي أقامه ابن الله نفسه، يوم البشارة، مع جسدٍ ونفسٍ مماثلين لجسدنا ونفسنا.

إنّ أهمّ زواج حصل في الناصرة ليس زواج مريم ويوسف، بل الزواج الذي تمّ في بطن مريم ذاتها. وقد وطد ابن الله اتّحاده بجسد يسوع ونفسه، حتى إنّ لم يستطع بعد ذلك القيام بأيّ شيء بدونهما. وارتباطه بهما هو من القوة بحيث أصبح يشكل وحدة معهما، فجسد يسوع هو جسد ابن الله، ونفس يسوع هي نفس ابن الله

...

عندما يتزوج الرجل والمرأة يبقيان شخصين اثنين، رغم أنّهما أصبحا واحدًا. أما في الإتحاد الزوجي بين ابن الله وطبيعته الإنسانيّة، فالوحدة هي من القوة بحيث تتعدى كون شخصين يتحدان. صحيح أن في يسوع المسيح طبيعتين، طبيعته الإلهية وطبيعته البشرية، غير أنّهما متحدتان في شخص واحد هو كيان شخص ابن الله الوحيد.

وهذا الإتحاد نفسه ينسجم مع العهد الجديد والأزلي الذي يريد الله أن يقيمه بواسطة ابنه مع كنيسته، وعن طريقها مع البشرية جمعاء.

إنّه إذًا عهدٌ زوجيّ - وقد يبدو بمثابة زواج غير متكافئ!- ويعلم المسيحيون أنّهم يشكلون أيقونته وعلامته.

أمامنا هنا أسرارٌ تتجاوزنا تجاوزًا كليًّا، حتى لو كنا نردّد في التراتيل الليتورجية المعاصرة أننا شعب العهد.

نحن مدعوون إذاً إلى التأمل في هذا العهد عندما نتأمل مليًّا في إنجيل عرس قانا الجليل. فعندما قبل يسوع الدعوة إلى هذا العرس مع تلاميذه، في مستهلّ عمله الرسولي، أوضح بذلك أنه حقًّا العريس الذي جاء إلى الأرض ليعقد مع البشرية "عهدًا" جديدًا وأبدئيًّا.

وعندما نشترك في الإفخارستيا، يجدّد المسيح مع كلّ منّا عهدًا زوجيًا حقيقيًّا، إذ يمنحنا جسده مثلما يهب الزوج نفسه إلى زوجته: "هذا هو جسدي المقدم من أجلكم". لذلك، يهبنا الكاهن إلى هذا اللقاء الزوجي بقوله: "طوبى للمدعوين إلى وليمة عرس الحمل" (رؤيا ١٩/٩).

ومنذ عشرين قرنًا، ما فتئ الملايين من المسيحيين يتهجون لأنهم تناولوا في صميمهم جسد إلههم، على غرار مريم التي تناولته يوم حملته في حشاها البتولي.

ثالثًا: الله يقترح علينا النموذج الكامل للبتولية المكرّسة

إنّ بتولية مريم هي فعلاً النموذج الذي لا يمكن تخطيه. عندما بشرها الملاك أنّها ستصبح أمًّا، أجابت بقولها إنّها بتول: "كيف يكون هذا ولا أعرف رجلاً؟" (لوقا ١/٣٤).

إنّ معنى هذا الجواب واضح، ويدلّ على حالة راهنة، وهو يشبه قول الشخص الذي تقدّم له سيكارة أو كأسًا من الخمر فيجيب: "أنا لا أدخن"، أو "أنا لا أشرب". إذاً لقد أعربت مريم هنا عن عزمها وقرارها بأن تبقى عذراء.

لقد اعترض بعضهم بالقول إنّ مفهوم البتولية ينطوي على مغالطة تاريخية. وقد وجدت البتولية لها سابقة لدى اليهود الأسينيين، إذ أشار الفيلسوف "فيلون" إلى وجود جماعة من "العذارى المسنّات". أمّا مريم، فإنّها جدّدت معنى مثل هذا المشروع الحياتي، فلم تلتزم بالعقّة، التي كان كهنة إسرائيل يتقيدون بها قبل الاحتفال بشعائر العبادة، والتي وسّعت جماعة "قمران" تطبيقها ليشمل الحياة كلها، بل كانت تهب ذاتها لله وحده حصراً.

وبسرعة أصبحت مريم بنظر المسيحيين "العذراء المثالية" (سيده العذارى) وقدوة الذين واللواتي يختارون تكريس بتوليتهم للرب. وفي الرسالة الأولى إلى أهل كورنثس (٣٧/٧)، نرى أنّ حالة البتولية كانت رائجة كأمر طبيعي، منذ ذلك الحين، في أوساط الجماعات المسيحية. وقد ساهم مثال مريم كثيرًا في احترام وممارسة البتولية المكرّسة، علماً بأن هذا التكريس ليس عدولاً عن الأبوة والأمومة فحسب، بل هو أيضاً انفتاح على شكل آخر من الخصوبة.

وإذا تأمل المسيحيون في سرّ مريم، سيفهمون بقدر أفضل قول يسوع المسيح المدهش، الذي جاء فيه: "وفي الخصيان من خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السماوات. فمن استطاع أن يفهم فليفهم!" (متى ١٩/١٢).

ونشير هنا بشكل عرضي إلى روح المداعبة لدى الله ... كيف هيّا مريم لتكون أمًّا لعائلة كبيرة؟ الجواب: بأن وضع أولاً في قلبها الرغبة في البقاء عذراء، فعدلت عن كل أمومة كي تتفرغ كلياً للرب. وهي رغبة تدعو إلى الاستغراب في حقبة كان حلم كل فتاة يهودية فيها أن تنجب عديداً من الأولاد! تلك هي الطريقة المبتكرة التي هيّا بها الله مريم لتصبح أمًّا.

نعيد أخيراً إلى الأذهان أنّ الله أعطانا، بأمومة مريم البتولية، أيقونة رائعة لأبوتته بالذات. وكثيراً ما تحتفل الليتورجيا الشرقية بمريم، بالعبرة الآتية: "أنجبت بدون أب الابن المولود من الأب منذ الأزل بدون أم!".

* للحوار في الفرقة:

- ١- هل فهمنا بقدر أفضل، في ضوء قراءتنا لهذا الفصل، أن الله لا يطلب منا أن "نبتلع" حقيقة إيمانية من دون فهم، بل يحق لنا أن نستمتع بطعمها بعض الشيء عن طريق ملاحظتنا للعلاقة التي تربطها بمجموع الحقائق المسيحية؟
- ٢- أقدم القديس بولس، في مقطع طويل من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١٧/٧-٤٠)، على تأكيد قيمة البنولية (العفة) الرفيعة المكرسة للرب. فهل نُقدّر، وبكل بساطة، مع اقتنارنا بالدعوة إلى الزواج، قيمة الدعوة إلى العزوبة المكرسة؟
- ٣- ربّما فوجئنا في مشاريعنا "بزيارة مرتجلة" من الله، فهل ساعدنا مثال مريم على أن نجيب إلى طلب الرب، كما فعلت: "أنا أمة الرب، فليكن لي كما قلت؟"

* للحوار بين الزوجين:

- ١- هل تؤمن بكل جراءة، مثلما فعلت مريم، بأن "لا شيء يستحيل على الله؟"
- ٢- كيف نستطيع أن نعيش هذا الإيمان، بقدر أكبر، في حياتنا الزوجية؟ وفي النظرة التي ننظرها إلى أولادنا؟ وفي نظرتنا إلى الكنيسة والعالم؟

+ صلاة لاجتماع الفرقة

(متى 1/ 18-23)

أما ميلاد يسوع المسيح، فهذا خبره: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف، ووجدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس. وكان يوسف زوجها باراً، فلم يرد أن يشهر أمرها فعزم على تركها سراً.

وما فكر في ذلك حتى تراءى له ملاك الرب في الحلم وقال له: "يا يوسف ابن داود، لا تخف أن تجيء بامرأتك مريم إلى بيتك. إن الذي تحمله هو من الروح القدس، وستلد ابناً فسمّه يسوع، لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياهم". وإنما حدث ذلك كله ليتم ما أوحى الرب إلى النبي القائل: "العذراء ستحمل فتلد ابناً يدعى عمانوئيل" أي الله معنا.

عظة القديس برنار الثانية حول الإنجيل

لماذا أراد تركها؟ (أي مريم). إليكم انطباعات آباء الكنيسة بهذا الصدد (وليس انطباعي أنا) : السبب الذي جعل يوسف يرغب في إعادة مريم هو السبب ذاته الذي استند إليه بطرس ليبعد الرب عنه: "تباعذ عني يا رب فإني رجل خاطئ". وهو أيضاً السبب ذاته الذي ذكره قائد المائة، عندما قال: "سيدي، لست أهلاً لأن تدخل بيتي فتقف تحت سقفي". هكذا إذاً كان وضع يوسف الذي اعتبر نفسه غير جدير وخاطئاً، فقال في نفسه: "إن مريم هي من الكمال والعظمة، بحيث لا أستحق أن تستمر في العيش معي، وكرامتها المذهلة تتجاوزني وتخيفني". ولاحظ برهية، أنها تحمل علامة واضحة لحضور إلهي، فأراد إبعادها لأنه كان عاجزاً عن كشف هذا السرّ. والخوف اعترى أيضاً بطرس أمام عظمة القدرة، مثلما اعترى قائد المائة أمام مهابة الوجود... وأليصابات نفسها لم تستطع تحمل وجود مريم، فاستقبلتها وهي ترتجف احتراماً قائلة: "أتى لي أن تأتيني أم ربي؟"

نصوص:**■ تضرّع**

"اذكري أيتها العذراء مريم، الممتلئة رحمة، أنه لم يُسمع عنك قط أنك خذلت أيًا ممن لجأوا إلى حمايتك، أو التمسوا عونك، أو طلبوا مساعدتك. وإني، يا عذراء العذاري ويا أمي، إذ تنعشني مثل تلك الثقة، أسارع نحوك وأسجد أمام قدميك، نائحًا تحت عبء خطاياي. فيا أمّ الكلمة لا تحقري صلواتي بل استقبلها بترحاب، وتكرّمي بالاستجابة لها. آمين".

كثيرًا ما نُسب هذا التضرّع المسمى "اذكري" إلى القديس برنار، الذي كان يقول عن مريم: "لا تتحدّثوا بعد الآن عن حنانها، إذا تذكّر واحدٌ فقط ممّن التمسوها في الحاجة أنّها تخلفت عن نجدته" (العظة الرابعة "حول انتقال العذراء"، رقم ٨). بيد أن التضرّع المذكور، لم يتخذ شكله الحالي، إلّا في القرن الخامس عشر.

في الحقيقة نجد شكلاً أوليًا منه في القرن الثامن في عظة للقديس يوحنا الدمشقي حول عيد البشارة، وقد جاء فيها: "يا مريم، أنت التي تُسمع شفاعتها وتُستجاب صلاتها دائمًا (...) ليتنا نحصل بواسطتك على العون كي نصنع الخير ونتحاشى الشر (...) فنبلغ إلى الله العليّ!".

وفي فترة لاحقة، برزت نصوص ليتورجية يونانية تستعيد بالتفصيل هذه الفكرة: لا تستطيع مريم أن ترفض شيئاً للذين يلجأون إلى شفاعتها. وفيما يلي مقتطفات من النصوص المذكورة:

- ما من أحدٍ يسارع إليك ويعود من عندك خائبًا، أيتها النقية والدة الإله، بل يلتمس النعمة، فينال الموهبة على وفق ملتمسه.

- أيتها الشفيعة الحارة والسور الذي لا ينال، ينبوع الرحمة وملجأ العالم. إليك نهتف بإلحاح، أيتها السيدة والدة الإله، فبادري وأنقذينا من المخاطر، يا سريعة النصره وحدك.

(من رتبة الباركليسي)

■ لم يُرد أن يشهر أمرها (متى ١٩/١)

هل يجوز الاعتقاد بأن مريم كتمت سرّها، وأنه بالرغم من إرادتها لم يتسرّب شيء من الانقلاب الذي طرأ على شخصها وعلى حياتها؟ هل يجوز الاعتقاد أنّ يوسف لم يلاحظ شيئاً، وأنه لم يحاول معرفة ما حصل، حتى قبل أن يتغيّر مظهر جسم مريم؟ الصراحة هي القاعدة المألوفة لدى الخطيبين. إنّ الملاك لم يوح لمريم بالتزام الصمت، فكيف لا تشرك في سرّها الإلهي من وضعه الله إلى جانبها.

قد تكون مريم هي التي فاتحت يوسف بالأمر، إذ كان قلبها يفيض فرحًا، فأرادت أن تشاركه بهجتها. أو قد يكون يوسف هو الذي استغرب التغيير الطارئ على مريم، فاستفهم منها عن الموضوع من خلال نظرة أو صمت. المهمّ، في كل حال، أنّ مريم كشفت الأمر الرائع، فقررا الصمت معًا. ولعلّه راود يوسف شعورٌ بالشكر والحمد وإعجابٌ لا حدود له بمريم التي تجسّد فيها مسيح المستقبل. ولكن، وفي الوقت عينه، ربّما انتابته آلام أخذت بالاشتداد شيئاً فشيئاً.

لم يساور يوسف أيّ شك، ولو للحظة واحدة، فقد كان يعرف مريم تمام المعرفة، ويعرف خضوعها التام لله، وطهارتها نحوه هو بالذات. وكان يدرك أنّ أدنى ريب من طرفه سيكون شأنًا بحق مريم، بل بحقه هو بالذات. إذًا، كانت لآلام يوسف أسباب أخرى.

ذلك أنّ لهذا البار حسًّا عميقًا بالسرّ. فقد اختار الله مريم ملكًا له في نطاق مخططه الذي يتجاوز كل رؤية بشرية. وأمام مريم وأمام ما صنعه الله فيها تراجع يوسف، شأنه شأن جميع الذين يدركون عدم جدارتهم، وكانت ردّة فعله شبيهة بردّة فعل أبرار العهد القديم، وبردّة فعل بطرس عندما قال ليسوع: "تباعد عني، فإنّي رجل خاطئ" (لو ٨/٥). فما عساه يفعل في هذا الموقف الذي يدير الله اللعبة فيه وحده؟

سألّت مريم ملاك البشارة قائلة: "ماذا عن بتوليتي؟". أما يوسف، فكان تسأوله مختلفًا: "ماذا عن زواجنا؟" واجه يوسف عندئذ خيارًا قاسيًا: إمّا أن يبقى مع مريم وينتحل صفة الأب التي كانت تعود لله وحده، فيشير

بذلك إلى أن الطفل هو ولده، وإمّا أن يتخلى عن مريم ويبتعد عنها، آخذاً كل الاحتياطات لتجنّبها أية إهانة علنيّة. ولكن إذا فارقها على هذا النحو، يكون قد ضحّى بزواجه وقطع العلاقة معها، وهي التي أعطته كل شيء وأعطاه كل شيء! ويكون قد فارق هذه المخلوقة الكاملة، التي يتحول الحب والحياة بقربها إلى بهجة ونور! ويكون قد عدل عن مشروع العيش معها لأجل الله! ألا يكفي كل ذلك لتعذيبه عذاباً مريراً؟ وصمّنت مريم إلى جانبه. كانت تعلم أنه يتألم ولماذا يتألم. ولكن لم يكن لديها جواب تقدّمه له، ولم يكن بوسعها إلا أن تلتفت معه نحو الرب.

(هنري كافاريل، "خذ امرأتك مريم إلى بيتك، ١٩٨٣)

■ بتوليّة مريم بنظر بروتستانتيين معاصرين

نشأ اللاهوتي السويسري كارل بارت *Karl Barth* (١٨٨٦ - ١٩٦٨) في التيار المتحرر للمذهب البروتستانتي الذي يفسر الكتب المقدسة تحت تأثير نقدٍ بالغ العقلانية، بطريقة رمزية بحثية. وكان، في نظر البروتستانتية، المجدد المسموع أكثر من أي لاهوتي آخر في موضوع الإيمان والعقيدة. وقد عمل بشجاعة على إعادة الاعتبار إلى مقطع من قانون الإيمان طالما كان للبروتستانتيين موضوع جدل: "وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء".

على الصعيد البشري، يدين الابن لأبيه بكل ما يميّز وجوده الخاص: اسمه، وضعه، حقوقه، مزاجه، طابعه الفرد، مكانته التاريخية. لذلك، فإنّ ولادة يسوع المسيح من أب بشري لا تصلح إطلاقاً لتكون علامة ليسوع الإنسان، بوصفه ابناً مولوداً من الأب في الأزل، بل كانت ستؤدّي بالعكس إلى اعتبار يسوع فرداً يختلف وجوده عن وجود الله ويستقل عنه [...].

وفي كل ولادة طبيعيّة، يعود مكان الصدارة إلى الرجل، الرجل الواعي لسلطته والقوي في إرادته والفخور بقدرته الخلاقية، الرجل المستقل السيّد. إنّ مفهوم الولادة الطبيعيّة إذا لا يمكنه أن يكون علامة ملائمة للسرّ الذي نحن بصددده هنا، إذ إنه يشكل علامة القدرة شبه الكونية للحب البشري (الهوى *Eros*). للدلالة على تلك القدرة في كل أبعادها، فقد ظهر الاتحاد الجنسي دائماً كعلامة أكثر غنى ومعنى من أية علامة أخرى. إلاّ أنه لا يمكن مقارنته بـ"المحبّة" الإلهية (*Agapé*) التي "لا تسعى إلى منفعتها". فإنّ إرادة الرجل في إظهار قوته وسيطرته، كما تبدو خاصة في الفعل الجنسي، تختلف كلياً عن عظمة الرحمة الإلهية. لذلك، فإنّ بتوليّة مريم، لا اتحادها مع يوسف، هي التي تشكل علامة الوحي والمعرفة لسرّ ميلاد يسوع.

■ من أقوال القس جان تارتييه *Jean Tartier*

بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لتدشين جناح "وحدة المسيحيين" في مدينة لورد، ألقى القس جان تارتييه في عام ١٩٩٤ محاضرة حول "مريم والمسكونيّة". وقد شرح فيها أنّ مريم جنّبت المسيحيين الوقوع في هرطقة "الدوسيتيين *Docites*" (الذين يدّعون أن تأسس المسيح كان ظاهرياً فقط)، كما جنّبتهم الوهم بأنّ الإنسان قادر على تخليص نفسه بنفسه. ومما جاء فيها:

- "مريم هي الدليل الأكيد على أنّ يسوع كان إنساناً حقاً، ابن الله المولود من امرأة. فمريم تذكّرنا باستمرار بتجسّد ابن الله، وهي تجنّبنا بالتالي الوقوع في أحبولة الهرطقة الدوسيتية..."

- "إنّ بتوليّة مريم هي العلامة المقبولة من الجميع، حتى من البروتستانتيين، على أن الإنسان عاجز بذاته عن أن يخلق خلاصه الذاتي ومخلصه الشخصي، إذ لا بدّ لأجل ذلك من حرية الله العجائبيّة ومجانبيّة التامة".

واليوم، ما أكثر الأشخاص بين معاصرينا الذين يتعرّضون لتجربة العمل لأجل خلاصهم الخاص، محاولين تحقيقه بذاتهم. وما أكثر المذاهب المتسلّة إلينا من الشرق أو من الغرب، التي تعلل بالأوهام هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يقاربوا مقارنة جيّدة سرّ الله المتجسّد في مريم.

من أقوال ماري بودوان كروا *Marie Baudouin – Croix*

إذا اصطدمت بالأسرار، قل في نفسك إنّ أمّ الله هي أوّل من أدهشتها هذه الأسرار.



Foyer de charité de la Flatière

حياة بسيطة للغاية

عانت القديسة تيريزا الطفل يسوع من آلام مبرّحة في إمعانها قبل شهر من وفاتها. وكانت ردّة فعلها عنيفة، عندما كانت تقدّم لها صورّ تصوّر العائلة المقدسة بطريقة مثالية.

... ما يفيدني عندما أفكر بالعائلة المقدسة هو تصوّري بأنّها كانت تعيش حياة عاديّة تمامًا، وليس كل ما يفترضونه أو يروونه لنا [...] كم يبدو لي أنّ حياتها كانت بسيطة! كانت نساء المنطقة يأتين للتحدث إلى العذراء مريم بلا تكلف، وكُنّ يطلبن منها أحياناً أن تعطيهنّ يسوع الصغير ليلعب مع أولادهنّ. وكان يسوع ينظر إلى العذراء مستفسراً عمّا إذا كان عليه مرافقتهنّ. وفي بعض الأحيان، كانت النساء يتوجهنّ مباشرة إلى الطفل يسوع ويقلن له ببساطة: "تعال والعب مع ولدي الصغير" [...].

وأما القديس يوسف الطيب القلب! فكم أحبّه! أتصوّره وكأنّي أراه وهو ينشر الخشب ثم يمسح عرق جبينه من حين إلى حين (...)

وما أكثر أحرانه وخيبات أمله! فكم مرة تعرّض للوم والإهانة! وكم مرة رفضوا أن يدفعوا له أجرته! لا شك أنّ دهشتنا ستكون شديدة إذا علمنا بكل ما عاناه هو وعائلته!

(٢٠ آب ١٨٩٧)

وفي اليوم التالي، عادت تيريزا إلى الموضوع، وألحّت على وجوب تضمين العظات حول مريم ما يشير دائماً إلى إمكانية محاكاتها أو التمثّل بها:

ليتني كنت كاهناً لأعظ عن القديسة العذراء. عظة واحدة كانت تكفيني كي أعبر عن كل ما في ذهني بشأنها.

كنت سأبتدئ بإفهام المستمعين أنّهم لا يعرفون سوى القليل عن حياة مريم. فعليهم تجنّب الأقوال غير المعقولة والتحدث عن أمور غير معروفة كقولهم مثلاً: إنّ العذراء، عندما كانت في الثالثة من العمر، ذهبت إلى الهيكل لتكرّس نفسها للرب تحديداً مشاعر حب حارقة أو خارقة: في حين أنّها ربما ذهبت إلى هناك، بكل بساطة، من باب الطاعة لوالديها.

لا يجوز كذلك تأويل النبوءة التي وجهها سمعان الشيخ إلى مريم: "وأنت سينفذ سيف في نفسك"، بالقول إنّ مريم وضعت نصب عينيها أمام يسوع منذ تلك اللحظة، إذ، في الواقع، لم تكن تلك العبارة إلاّ نبوءة للمستقبل فقط.

ولكي تعجّبي عظة عن العذراء وتفيدني، يجب أن أرى حياتها الحقيقية لا حياتها المفترضة، وإنّي متأكّدة من أنّ حياتها الحقيقية كانت بمنتهى البساطة. يقولون إنّه يصعب التمثّل بها، في حين يجب القول إنّها مثال لنا، كما يجب إبراز فضائلها وإعلان أنها كانت تعيش من الإيمان على غرارنا. ويجب أيضاً الاستشهاد بالإنجيل حيث وردت العبارة الآتية: "لم يفهما الكلمة التي قالها لهما". ووردت أيضاً عبارة أخرى لا تقل غرابة: "وأعجب أبواه بما كان يُقال عنه". إنّ مثل هذا الإعجاب يفترض وجود بعض الدهشة أليس كذلك أيتها الأم الصغيرة؟

نعلم جيّداً أنّ العذراء مريم هي ملكة السماء والأرض، إلاّ أنّها أمّ أكثر ممّا هي ملكة. ولا يجب القول إنّها تحجب مجد جميع القديسين بسبب ميزاتهما مثلما تحجب الشمس النجوم عند إشراقها. يا إلهي! ما أغرب ذلك! أمّ تزيل مجد أولادها! إنّني أعتقد العكس تماماً، وأرى أن مريم ستزيد بقدر كبير بهاء المختارين.

لا بأس من ذكر ميزتها، ولكن يجب عدم الاقتصار على ذلك. فإذا تاه المؤمنون إعجاباً بتفوق مريم، منذ بداية العظة حتى نهايتها، فقد يؤدي الأمر بالبعض منهم إلى الشعور بشيء من الجفاء تجاه تلك المخلوقة المتفوقة إلى هذا الحد، فيودّ، والحال هذه، أن يختلي بنفسه في زاوية بعيدة حيث يستطيع أن يبرز بالطريقة التي يحسنها.

وما تتفوّق به السيّدة العذراء علينا هو أنّها لم تكن قادرة على أن تقع في الخطيئة، وأنّها كانت بريئة من الخطيئة الأصليّة. ولكن، من جهة أخرى، لم يكن حظها موفوراً مثل حظنا، لأنه لم تكن توجد "قديسة عذراء" غيرها لتحبّها، أمّا نحن فلنا هذه الحلاوة اللطيفة الإضافية لم تعهدنا مريم.

(٢١ أب ١٨٩٧)

الفصل الخامس

العائلة المقدسة

"ثم نزل معهما وعاد إلى الناصرة، وكان طائعا لهما" (لوقا ٥١/٢)

ألا يوجد تناقض في أن نقترح أسرة مريم ويوسف على المتزوجين المسيحيين كعائلة نموذجية؟ لم تعرف بالتأكيد أسرتها كلّ المحن التي يعاني منها اليوم العديد من العائلات، ولا سيّما المصاعب المتعلقة بالحوار الزوجي وبتربية الأولاد. ومع ذلك، لقد مضى عشرون قرناً ولا تزال عائلات مسيحية تجد حافزاً قوياً في تأملها العائلة المقدسة. دعونا نحاول معرفة السبب، إلا أنّ ثمة ملاحظة تمهيدية لا بدّ منها: عندما يعجب بعض المسيحيين بالقديس فرنسيس الأسيزي، ويستلهمونه قدوة لهم، يعرفون تمام المعرفة أنّه لا يتعيّن عليهم أن يعيشوا، مثله، الفقر الإنجيلي، إذ لكل شخص دعوته. ومن باب أولى عندما يتعلّق الأمر بالعائلة المقدسة، فهي ليست بالتأكيد نموذجاً يجب تقليده كما هو وبطبيعة الحال، لا يوجد من يستطيع ذلك.

أولاً - حب زوجي يُعاش في فعل النعمة

إنّ الحنان الخارق الذي اتصف به الحبّ المتبادل بين مريم ويوسف طيلة حياتهما كان أجمل أيقونة للحبّ الثالوثي وُجدت على الأرض.

هذا لا يعني أنّهما كانا يتفقان فوراً على القرارات الواجب اتخاذها وأنّ " كل شيء كان على ما يرام في أسرتهم". ويتضمّن الفصلان اللاحقان ٦ و٨ بعض اللّمحات عمّا كانا يعانيان في حياتهما من شدائد وأحزان وقلق.

أمّا بالنسبة إلى انعدام العلاقات الجنسيّة بينهما، فإن ذلك لم يمنعهما من الإعجاب ببعضهما ببعض، ومن تبادل الحبّ العميق، ومن التعبير عن حنانهما المتبادل بشتى الطرق وبملء الابتهاج.

إنّ الربّ، إذ يقترح العائلة المقدسة على المسيحيين المتزوجين كأُسرة نموذجية، لا يطلب منهم بالطبع أن يقللوا من أهميّة البعد الجنسيّ لحبّهما الزوجي. بيد أنّ الطريقة البتولية التي دعي بها مريم ويوسف إلى أن يعيشا حبّهما، تُلقى ضوءاً عدباً على جميع المتزوجين الذين يضطرون، بسبب ظروف مختلفة (بُعد، مرض)، إلى الامتناع مؤقتاً أو نهائياً عن التعبير الجنسيّ عن حنانهم الزوجي. وإذا ما تأملوا العائلة المقدسة، يدركون أنّ باستطاعتهم أن يعيشوا حبّاً رائعاً رغم هذا الحرمان.

إنّ الزواج البتولي بين مريم ويوسف يشكّل أيضاً مثلاً دينامياً للمتزوّجين المسيحيين، الذين يتأثرون ذات يوم بالدعوة التي وجّهها القديس بولس. فقد بيّن أنّه من المستحسن أن يمتنع الزوجان عن الاتصال الجنسيّ، "بناءً على اتفاق بينهما، وإلى حين، كي يتفرّغا للصلاة" (قورنثس الأولى ٥/٧).

وأوضح الأب كافاريل في كتابه "خذ امرأتك مريم إلى بيتك" (١٩٨٣، الصفحة ١٥٩)، أنّ كل دعوة تتوق نحو البتولية، إذ إنها عطاء كامل وانتماء كلي إلى المسيح.

وقد كتبت إلينا إحدى أسرِ الفرق تقول:

" يبدو لنا من الأهميّة بمكان أن نركّز على إمكانيّة وجود حبّ زوجيّ بدون علاقة جنسيّة، وعلى أنّ الامتناع عن تلك العلاقة ممكن في بعض الحالات، لا نتيجة لغياب أو لمرض فحسب، بل نتيجة لاختيار حرّ. ويستطيع الزوجان أن يختارا هذا "الصوم" المؤقت كوسيلة للتقدّم، إذ من شأن البحث الدؤوب عن المتعة الحسيّة أن يحول أحياناً دون الانتباه إلى نداءات الروح القدس".

وتابع الزوج في الأسرة المذكورة قائلاً:

"أنا نفسي تأثرت كثيراً بتجربة هذا الصوم، التي مارسناها مؤخراً لمدة شهر ونيف، عند تطبيقنا "طريقة بيلينغس". ورغم أنها كانت تجربة يصعب تطبيقها يومياً، فقد اكتسبت طريقة أنظر بها إلى زوجتي نظرة أخرى. ولم يقلل هذا الامتناع من حبنا المتبادل، بل بالعكس أضفى على علاقتنا الزوجية مزيداً من العذوبة، وأتاح لنا الشعور بفرح عميق، من نوعية لم نعهدها من قبل".

ويفيد أيضاً جميع المتزوجين المسيحيين من تأملهم لجو الشكر، الذي عاش فيه مريم ويوسف حبهما الزوجي. فلا شك أن مريم كانت تشكر الرب الذي خصها بزواج يحبها، ويتحلى بمثل هذا اللطف وهذه الرقة. ويمكننا أيضاً أن نتصور كيف كان يوسف يشكر الرب، لأنه منحه زوجة جميلة يمتلئ قلبها حناناً نحوه.

وباستطاعة جميع الأسر المسيحية أن تعيش بدورها مثل هذا الاختبار.

ثانياً - مهمة تربوية عاشها مريم ويوسف بكل تواضع

كان يوسف ومريم متفرغين لتربية الطفل الذي عهد به إليهما، إذ أوكلت إليهما مهمة الإتاحة لابن الله أن يصبح حقاً واحداً منا.

وكان لا بد من عملية التأنس تلك لتحقيق خلاصنا. فلكي نستطيع أن نصبح أبناء الله، كان يجب قطعاً أن يصبح ابن الله ممثلاً لنا في كل شيء، ما عدا الخطيئة (عبرانيين ١٥/٤).

دعونا ننظر عن كثب إلى هذا الدور الذي لعبه يوسف ومريم كمرتبين لولدهما، وهو دور أبرزه جيداً لوقا الإنجيلي عندما ختم روايته لطفولة يسوع بالكلمات الآتية: "ثم نزل معهما وعاد إلى الناصرة وكان طائعاً لهما (...). أما يسوع فكان يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس" (٥٢-٥١/٢).

وفيما خصّ الطاعة، إذا رجعنا إلى المعنى الأصلي لكلمة "سلطة"، كما هو في اللغة اليونانية المشتقة منها، نلاحظ أنه يفيد "ازدياد"، أي أن سلطة مريم ويوسف على ولدهما مكنته من أن "ينمو" في كل المجالات، بما في ذلك مجال الحب!

وتستطيع هذه الفكرة أن تساعدنا على تجديد تعجبنا أمام المهمة التربوية التي يؤديها اليوم أيضاً كافة آباء وأمهات العالم، والتي تتمثل في إنماء أولادهم "في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس".

من البديهي أنه يستحيل علينا أن نكون فكرة واضحة عن نفسية يسوع، فسرّ وعيه البشري هو أحد جوانب سرّ التجسد ذاته. ومع ذلك، يمكننا أن نخمن أو نحزر كل ما تلقاه يسوع من جرّاء وجوده سنوات عديدة مع مريم ويوسف.

• فرح التمتع بالحياة:

لا شك أن من أهم أسباب ابتسام يسوع وفرحه بالحياة هو الوفاق الذي كان سائداً بين مريم ويوسف وحبهما الزوجي والحنان الذي كانا يحيطانه به. ولا شيء يمنعنا من أن نتصور كيف كانا يضحكان لمشاهدتهما يسوع وهو يخطو خطواته الأولى، وكم ابتهجا لاستماعهما إلى أسئلته وكلماته الطريفة. وقد نصاب ببعض "الدوار" إذا فكرنا في التأثير المستمر الذي مارسه حبهما على قلب يسوع، هذا القلب الذي لا يزال يحبنا، والذي سيدوم حبه لنا إلى دهر الدهرين.

• نضج عاطفي كامل:

كثيراً ما يُقال إن يوسف كان الأب المتبني ليسوع، وذلك لتفسير سرّ حبّ مريم البتولي. في الواقع، يمكن القول إن "جميع الآباء مُتبنون" بمعنى أنه سيأتي يوم يتعين فيه على كل أب أن يتبنى كلياً الطفل الذي حملته زوجته وأنجبته، علماً بأنّ العديد من الآباء يفعلون ذلك على الفور، بينما يفعله غيرهم في وقت لاحق.

ومهما كانت السرعة التي يتم فيها هذا التبني، فإنه أساسي لحصول النضج العاطفي عند الطفل، إذ يتوصل هذا الأخير، بفضل علاقته الجيدة مع والده، إلى أن ينفصل تدريجياً عن أمه، وأن يقطع "الحبل السري"

الذي يربطه بها عاطفياً. وقد لعب يوسف هذا الدور في تربية ولده، كما أنه ساهم في جعل يسوع يصبح "رجلاً" بكل معنى الكلمة، مقترحاً عليه صورة "ذكورية" استطاع أن يتمثل بها. وكان لهذا النفوذ الأبوي المُجدي صدى في الحرية التي أظهرها يسوع تجاه الذين أحاطوا به، فكان حرّاً إزاءهم جميعاً، ولم يخش أن يقول لكل منهم ما يفكر فيه.

• فرح الحب:

تلقى يسوع من أبويه العديد والعديد من المعلومات. فقد اكتشف في مدرستهما معنى الألفاظ وكيفية التصرف في مختلف ظروف الحياة اليومية، كما أنهما علّماه القراءة والكتابة والغناء. وفي ورشة أبيه، تدرب يسوع على فنّ حفر الخشب وإحكام اللسان داخل الفريضة، وراقب أمّه وهي تزرع الخضار وتحلب النعاج. وعندما شاهدها تبحث عن قطعة نقود مفقودة، أدرك أن أباه السماوي يتوق إلى العثور على كلّ من أبنائه الضالين.

وأعجب أيضاً يسوع بالبرقة التي كان يتّسم بها الحبّ المتبادل بين أبيه وأمه، فقدّهما متملّداً على الحب الحقيقي، مختبراً في نفسه ما سيعلمه لتلاميذه في وقت لاحق: "السعادة الكبرى في العطاء لا في الأخذ" (أعمال الرسل ٢٠/٣٥).

وبذلك اضطلع يوسف ومريم بمسؤوليّة هائلة بكل فرح، إذ لقنا ابن الله المولود من الأب فنّ المحبّة، بقلب بشريّ وبيوادر إنسانيّة.

• فرح التصرّع إلى الأب:

يرتكب خطأ جسيماً كلّ من يتصوّر أنّ يسوع لم يكن في حاجة إلى تربية دينيّة. فبالرغم من علمه في الصميم، ومنذ اللحظة الأولى من حياته الواعية أنه الابن الحبيب للأب، احتاج يسوع إلى نظرات والديه وقبلاتهما وسواعدهما ليمثل لنفسه، ضمن وعيه الإنساني، حنان أبيه السماوي الذي لا حدود له. ولم يستطع الربّ إلا أن يفكر في يوسف، عندما قال لتلاميذه يوماً: "إذا كنتم أنتم الأشرار تحسنون العطاء لأبنائكم، فما أولى أباكم السماوي بأن يمنح سائله الروح القدس" (لوقا ١١/١٣). ولا شك أنه كان يتذكر، عندما قال ذلك، بالمفاجآت التي بادره بها أبوه أكثر من مرة في فترة شبابه، لكن، من الأكيد أنه لم يقصد يوسف بكلمتي "أنتم الأشرار".

أكثر من ذلك، إنّ أبويه، لا سيّما والده، هما اللذان علّماه قراءة التوراة وتلاوة الصلاة اليومية: "اسمع يا إسرائيل، إنّ الربّ إلهنا ربّ واحد. فأحبّ الربّ إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك" (تثنية الاشتراع ٤/٦ - ٥). وعندما سئل يسوع في فترة لاحقة ما هي أعظم وصيّة في رأيه، اكتفى بتلاوة الصلاة التي علّمه إياها أبوه في طفولته.

وفي مدرسة والديه اعتاد يسوع أيضاً أن يبارك الله ويشكره في كل ظرف، من الشروق إلى الغروب. وعند استيقاظه على صوت الديك، كان يقول مثل جميع معاصريه من الأطفال اليهود: "مبارك أنت يا ربّ لأنك وهبت الديك القدرة على تمييز النور من الظلام"، إذ كان اليهود الأتقياء، منذ ذلك الحين، يرددون طيلة النهار مختلف آيات التبريك. ولا شك أن يسوع شاهد يوسف في العديد من المرات يكسر قطعة من الخبز في بدء وجبة الطعام قائلاً: "مبارك أنت يا ربّ، إله الكون، أنت الذي أعطانا هذا الخبز، ثمرة الأرض وجهد الناس!" وهو تبريك كرّره يسوع نفسه في وقت لاحق، كلما جلس لتناول الطعام برفقة تلاميذه، ونطق به بمزيد من التخميم قبل تكثير الخبز، وكذلك في مستهلّ العشاء الأخير: "عندما حان وقت تسليمه ودخوله إلى الآلام بملء إرادته، أخذ الخبز وشكر وكسره..."

لا شك أنه كانت ليسوع طريقة خاصة لكسر الخبز. فقد عرفه اثنان من تلاميذه عشية الفصح في قرية عماوس، عندما شاهدها يقوم بهذه العمليّة. ومن الأرجح أن تكون طريقته تلك شبيهة بطريقة أبيه!

إذا تأمل المتزوّجون المسيحيّون ملياً في هذا الدور الخارق الذي قام به يوسف ومريم في تربية ابن الله بالذات، سيتوصّلون إلى إدراك أفضل لأهميّة دورهم التربوي تجاه أولادهم.

قام يوسف ومريم بمهمة تربية يسوع وهما واعيان تمام الوعي أنهما يقومان بمهمة تتجاوزهما إلى أبعد الحدود! وكثيراً ما صعب عليهما فهم مواقف ابنهما (لوقا ٢/٥٠) ومن شأن ذلك أن يشجعنا على متابعة دورنا التربوي كأباء من دون أن نترك صعوبة الواجب نتنبه همتنا.

ويجدر بنا أيضاً أن نلتزم الصمت أمام سرّ أولادنا أسوة بمريم ويوسف. ويشير الإنجيل إلى مناسبتين، عمدت فيهما العذراء بخشوع عميق إلى التأمل في كل ما يحدث لها وفي كل ما تسمعه، وخاصة كلام يسوع وسلوكه (لوقا ٢/٩١ و٥١).

ومن السهل التصوّر أنّ يوسف كان أيضاً صامتاً أمام سرّ ابنه، وأنّ قلبه كان يمتلئ خجلاً كلما رأى يسوع يطبع أذنى نصائحه. ولا شكّ أنّه كان يُشرك مريم في خجله، عندما كانا يجلسان معاً ويصمتان مبتهجين أمام ولدهما (أي في أثناء قيامهما بواجب المجالسة، إن صح القول!).

ثالثاً : أول خلية كنسيّة

ليست العائلة المقدسة مثلاً للحب الزوجي والأبوي فحسب، بل تجد فيها أيضاً كافة الجماعات المسيحية النموذج الكامل لما يتعيّن عليها أن تصبح هي بالذات.

كان الكاردينال "جورنيه" Journet يحبّ أن يتأمل أسرة الناصرة كونها "أول خلية كنسيّة" إذ كان وجود يسوع يستقطب كل حياة مريم ويوسف، اللذين لم يعيشا إلاّ لأجله، وكان سرورهما، وسبب وجودهما في الحياة، ينحصر في استقبال هذا الطفل الموهوب لهما بمجانبة مطلقة، وفي تربيته وتأمّله والإصغاء إليه.

وعلى غرار مريم ويوسف، يستطيع أفراد الجماعات المسيحية، أن يجدوا في استقبالهم المسيح بينهم وفي إعجابهم به، مصدرًا عميقاً لابتهاجهم ولوحدتهم. ولكن، في العديد من الأحيان، تنزع الجماعات الرسولية إلى الافتخار أولاً بما تصنعه هي أو بكثرة أعضائها، بدلاً من أن تستمدّ بهجتها من ذلك الذي وهب نفسه لها والذي يستطيع، من دون سواه، أن يقودها نحو الوحدة التامة، وان يجعل نشاطاتها خصبة حقاً.

ومن حق المتزوجين المسيحيين أن يبتهجوا لكون الله اقترح على كافة الجماعات المسيحية أن تتخذ قدوة لها أسرة مسيحية، لا جماعة دينية، مما يدلّ على تقديره الكبير لمؤسسة الزواج.

ومن شأن ذلك أن يشجّع المسيحيين بقوة على أن يجعلوا من أسرتهم "كنيسة مصغّرة" (حسب قول يوحنا بولس الثاني)، على صورة العائلة المقدسة، التي هي نفسها أيقونة العائلة الثالوثية.

وسيلبغ الزوجان المسيحيان، بدورهما، هذا الاكتمال من الحب والبهجة الذي يتطلعان إليه، إذا ما استقبلا الرب يسوع في أسرتهما واستمعا إليه.

* للحوار في الفرقة:

١- إذا حظينا بحب والدينا في طفولتنا، كيف نعبر لهما عن عرفاننا بالجميل؟

٢- نعلم أن أولادنا ليسوا ملكاً لنا، وأنّه سيأتي يوم يحصلون فيه على استقلالهم المشروع تجاهنا ... فكيف نستطيع أن نحقق التوازن الصحيح بين واجبنا الذي يلزمنا بتهيئة مستقبلهم، وواجبنا الذي يفرض علينا أن نبقي يقظين لمخطط الله بشأنهم وجاهزين لإتمامه.

* للحوار بين الزوجين:

١- هل نطلب المغفرة عند اللزوم عما بدر منا من خشونة، بالقول والفعل والإهمال؟ علماً بأن هذه المغفرة هي على صورة مغفرة المسيح لكافة أعضاء كنيسته.

٢- ماذا علينا أن نفعل لنجعل من أسرتنا "خلية كنسيّة" حقيقية بقدر أكبر؟

✦ صلاة لاجتماع الفرقة

(من إنجيل القديس لوقا ٢ / ٤١ - ٥٢)

وكان أبوا يسوع يذهبان كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح. فلما بلغ اثنتي عشرة سنة، صعدوا إليها جرياً على السنّة في العيد. فلما انقضت أيام العيد ورجعا، بقي الصبي يسوع في اورشليم، من غير أن يعلم أبواه. وكانا يظنان أنه في القافلة، فسارا مسيرة يوم ثم أخذوا يبحثان عنه عند الأقارب والمعارف. فلما لم يجداه، رجعا إلى اورشليم يبحثان عنه. فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل، جالساً في حلقة العلماء، يستمع إليهم ويسألهم. وكان جميع سامعيه في حيرة من ذكائه وردوده. فلما أبصره دهشاً، فقالت له أمه: "يا بني، لم صنعت بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحت عنك متلهفين". فقال لهما: "ولم تبحتا عني؟ ألم تعلما أنه يجب عليّ أن أكون عند أبي؟" فلم يفهما الكلمة التي قالها لهما.

ثم نزل معهما وعاد إلى الناصرة، وكان طائعاً لهما، وكانت أمه تحفظ كل شيء في قلبها. وكان يسوع يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس.

بإدارة نبويّة

ليس بقاء يسوع في الهيكل، على هذا الشكل وبهذه الطريقة غير المتوقّعة، هروباً أو عملاً صبيانياً، بل له مدلول نبويّ. وقبل أن يلتفت يسوع إلى أمور أبيه السماوي، كان عليه أن يهتم طوال سنين عديدة بأمور أبيه على الأرض. ولكن كان يجب أيضاً أن يعلم (وأن نعلم نحن معهما) أن هناك إمكانية حدوث نزاع بين الطاعة الواجبة للعائلة والطاعة الواجبة لله. فخدمة الله تأتي قبل خدمة الأبوين، وخدمة الهيكل تأتي قبل خدمة المنزل، وخدمة الأب السماوي تأتي قبل روابط المحبة المتولدة من اللحم والدم، وخدمة مخطط الله تأتي قبل مشاريع الآباء والأمهات بشأن أولادهم. إنّ الله هو أوّل من تجب خدمته، حتى لو اقتضى ذلك كسر عادات وجبهة ومشاعر حبّ مشروعة.

(هنري سانسون: الناصرة، حميمية روحية، ١٩٩٢)

Henri Sanson, Nazareth, intimité spirituelle, 1992

سيّدة الأطفال

يا مريم، أنت التي قدّمتِ ابنك إلى الهيكل، نقدّم إليك هؤلاء الأولاد الذين وهبنا الله إياهم. بنعمة معموديتهم أصبّحت أمّهم، لذلك نعهد بهم إلى حنانك وإلى يقظتك. امنحهم الصحة واحفظهم من الخطيئة، وإذا تاهوا ادعهم بحبّك كي ينالوا الغفران ويُبعثوا مرة أخرى إلى الحياة.

ساعدنا نحن آباءهم وأمّهاتهم، على أداء مهمتنا تجاههم، امنحنا نورك وحبك، علمينا أن نفتح عيونهم على كل ما هو جميل، وأذهانهم على كل ما هو صحيح، وقلوبهم على كل ما هو خير.

علمينا أن نستمع إليهم وان نُعينهم حتى يتحمّلوا مسؤولياتهم، دعينا نعرف كيف ننسحب عندما تأتي الساعة التي يتعيّن فيها أن يضطلعوا بأمورهم بأنفسهم.

وعندما نغيب عن هذه الدنيا فلا نعود نحيطهم بحناننا، قفي إلى جانبهم لتحضينهم بعطفك ولتحفظهم عبر الحياة، كي يأتي يوم نجتمع فيه جميعاً في منزل الأب - أمين.

(صلاة زوجين، مقتطفات من دفاتر مريم، تشرين الثاني ١٩٧٤)

✦ صلاة لأجل أولادنا

عهدت إينا يا ربّ بأولادنا. من أجل ما جلبوه إينا من أفراح وكل ما جعلونا نكتشفه، نرفع إليك آيات الشكر.

نودعهم بين يديك، كما كنا نفعّل عندما كنا ننتظرهم، وكما ما زلنا نفعّل في كل خطوة من حياتنا ومن حياتهم، وفي كل زلة قدم ...

نعهد بهم إليك لأننا علمنا - بل هم علمونا- أننا لا نستطيع الكثير لأجلهم، وأن بإمكاننا فقط محاولة حبّهم كما تحبّهم أنت.

الحمد لك لأنك منحتنا الحبّ الزوجي: فهو أعظم عطاء قدمناه إليهم. ولكن قد يكون العطاء أسهل من الأخذ. اجعل حبنا لهم متنبهاً وليكن نداءً خفياً أو استجابة خفية لطلباتهم.

لا نستطيع شيئاً بدونك، فساعدنا أيها الأب الصالح لنكون شهوداً لحنانك تجاه أولادنا.

أن نتصرّع إليك لأجلهم هو أيضاً أن نطلب لأجلهم. ولكن يا ربّ ما عسانا نطلب؟ ما هو الخير بالنسبة إليهم؟ نحن نعلم بما فيه الكفاية أنّه يختلف عمّا هو خير لنا، إذ يعيشون ويفكرون بطريقة مغايرة لطريقتنا نظراً إلى عمرهم. والأكثر من ذلك أنّهم يبدون وكأنهم ابتعدوا عنك، غير أنّك وحدك تعرف ما في أعماق قلوبهم.

لذلك، فالأحرى بنا أن نرفع الطلبات إليك لأجلنا نحن، فاجعل صبرنا المنقطع شبيهاً بصبرك الذي لا ينضب. واجعلنا نلتفت إلى كل ما هو صالح لدى أولادنا، حتى نقدر قيمته ونقدمه إليك قرباناً.

وفي الشدائد - لأنّها موجودة وستبقى موجودة - وفي الآلام التي سوف يسببونها لنا، امنحنا القوة الكافية لنحبّهم حباً يزداد يوماً بعد يوم، ولنستطيع أن نتعرّف، من وراء الأزمة، إلى النساء والرجال الجدد، الذين ولدوا من هذه الأزمة، والذين سيظلون دائماً أولادنا.

نصوص

■ هذا الولد الآتي من مكان آخر

عندما نظر يوسف ومريم إلى الطفل النائم، أدركا أنّ نظام الأمور قد انقلب. فالنظام يقضي بأن يرغب الأبوان في ولد، وأن يقررا مجيئه. لكن يسوع هو الذي اختار أباه وأمه، إذ إنّ الأب السماوي فكر فيه منذ الأزل، وخلق العالمين لأجله، ولأجله أيضاً نطق الأنبياء، وانجذب أبوه وأمه نحو البنوّة والزواج. حلّ عليهما نور ساطع فرفعا إلى الله آيات شكر لا حدود لها.

وهل هناك من شعور أو من يقين يجلب السعادة إلى الإنسان ويزيد صلاته عبادة أكثر من وقوع خيار الله عليه؟ وهل هناك فرحة تثير دهشة الوالدين أكثر من اختيار ولدهما لهما؟ من المألوف أن يشكر الطفل أبويه من أجل الحياة التي وهباها له. أما مريم ويوسف فهما اللذان شكرا الطفل والله أباه.

ثمة أيضاً أهمّ من ذلك. فهذا الولد الآتي من مكان آخر قد عهد به إليهما. نلاحظ هنا أموراً عادت إلى سيرها الطبيعي، بيد أنها تنطوي على ناحية فريدة، هي كون يسوع من أصل فائق الطبيعة. فقد كان بإمكان الله أن يجنّب مسيحه الحاجة إلى الحماية البشرية، كما لو أرسله مثلاً وهو في سن الرشد أو منحه معرفة عجائبيّة أو خصّص له مرافقين من الملائكة. لكن، لم يكن الأمر كذلك مع يسوع إذ اعتمد على أبويه لينال منهما المعرفة البشرية والحماية والتربية التي جعلت منه رجل زمانه وبيئته وعرقه ودينه. ويمكن القول إنّ الله تخلى عن جميع حقوقه على الطفل لصالح يوسف ومريم، فوثق بهما، وتنازل لهما عن أبوته، هو الذي خلقهما وألهمهما وقادهما وقدّسهما لأجل تلك اللحظة وهذه الرسالة.

إذاً، لقد "أعطي" لهما يسوع، أعطي لزوجهما ولحبّهما. الأمر الذي منح يوسف ومريم فرصة الإيمان بزواجهما بقدر أكبر، فجمع بينهما تضامن جديد. وفي الوقت الذي كانا ينظران فيه إلى وليدهما ويصغيان إلى تنفسه الهادئ، كانا ينضمّان بعضهما إلى بعض، بشكل عفوي، كأنهما يريدان التعبير عن التقارب

الجديد بينهما. وإذا كان المسيح الحاضر بين شخصين يوطد الإتحاد القائم بينهما، فبأية قوة يفعل ذلك بين هذا الرجل وهذه المرأة اللذين يحبانه ويتبادلان الحبّ فيه.

(هنري كافاريل، "خذ امرأتك مريم إلى بيتك، ١٩٨٣)

■ يوسف أيقونة الأب

(أبرز جان جاك أوليه (١٦٠٨ - ١٦٥٧) Jean-Jacques Olier تلميذ القديس منصور دي بول ومؤسس رهبانيّة "سان سوليبس" St-Sulpice، وهو نموذج للمدرسة الفرنسيّة للروحانيّة، أبرز بوضوح دور يوسف في حياة يسوع وفي حياتنا. فقد أتاح يوسف ليسوع الإنسان أن يُكوّن فكرة كاملة عن أبيه السماويّ، وكان بالنسبة إليه بمنزلة "علامة الأب الأزلي" وانعكاسه ومرآته. وهذا ما يجب أن يكون أيضًا بالنسبة إلينا).

إنّ القديس يوسف المثير للإعجاب أعطى للعالم وللدنيا ليعبّر بشكل محسوس عن كمالات الله الأب المعبودة. فكان يتحلّى بجمال الأب وصفاته وحبّه وحكمته وحصانته ورحمته ورأفته.

خُصّص قديس واحد لتمثيل الله الأب، في حين يلزم عدد لا يحصى من الكائنات وحشد من القديسين لتمثيل يسوع المسيح: فشغل الكنيسة الشاغل هو إبراز فضائل رئيسها وكماله، بينما القديس يوسف وحده يمثل الأب الأزلي. لذلك يجب اعتبار القديس يوسف الجليل، كأعظم الخلائق وأشهرها وأصعبها فهمًا من قِبَل الناس.

إنّ ابن الله الذي جعل نفسه مرئيًا بالتجسّد، كان يتحدث ويتعامل مع الله أبيه المستتر في شخص يوسف. فكان الأب إذًا يظهر ليسوع بواسطة يوسف وفي شخصه. وكانت القديسة العذراء مريم والقديس يوسف يمثلان معًا شخصًا واحدًا، هو شخص الله الأب. وكانا يشكلان تمثيلين محسوسين له، صورتين يعبّد المسيح بواسطتهما كمال أبيه السماوي، إمّا في خصوبته الأزلية، وإمّا في عنايته الإلهية الدنيوية.

(مشاعر "أوليه" Olier حول التقوى تجاه القديس يوسف، ١٨٤٣)

■ واجب الأبوة في أيامنا الحاضرة

كان يوسف يتضرّع إلى الله من كل قلبه المؤمن قائلاً له: "أبت"، وكان يسوع وهو يقوم إلى جانبه بأعمال النجارة، يتوجّه إليه مسميًا إياه: "أبت" ... يا له من سرّ!

فالمسيح، بصفته إلهًا، اختبر مباشرة الأبوة الإلهية في أحضان الثالوث الأقدس، وقد عاش التجربة نفسها بصفته إنسانًا عبر شخص يوسف أبيه بالتبني. وقدّم يوسف بدوره إلى الطفل الذي كان ينمو بجانبه في بيت الناصرة، ركن اتزانه كرجل وفطنته وشجاعته والمواهب التي يتحلّى بها كل أبٍ صالح، والتي كان يستمدّها من المصدر الرفيع الذي "منه كل أبوة في السماء والأرض" (أفسس ١٥/٣).

وواجب الأبوة هذا إنّما هو واجب رئيسي. أمّا اليوم، فيميل العديد من الآباء والأمّهات إلى التنحّي عن هذا الدور، ويفضلون أن يقيموا مع أولادهم علاقة النّدّ للنّدّ، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى حرمان هؤلاء الأولاد من الدعم النفسي والمعنوي الذي يحتاجون إليه لاجتياز المرحلة الحرجة للطفولة وللسنوات الأولى من المراهقة. وقد قيل إنّنا نعيش اليوم أزمة "المجتمع بدون آباء"، فبات الناس يشعرون أكثر فأكثر بالحاجة إلى إمكانية الاعتماد على آباء يحسنون تأدية دورهم، ويعرفون كيف يجمعون بين الحنان والجدية، بين التفهّم والقسوة، بين الزمالة والسلطة. فتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمكّن الأولاد من النموّ بانسجام، متغلبين على مخاوفهم ومتهيئين لمجابهة مفاجآت الحياة بشجاعة.

ولكن، أيها الآباء، أين تستطيعون أن تجدوا القدرة اللازمة لتتخذوا، في مختلف الظروف، الموقف الصحيح الذي يتوقّعه منكم أولادكم، ولو بدون علمهم؟

القديس يوسف هو الذي يعطيكم الجواب: في الله الذي هو مصدر كل أبوة، وفي طريقة تعامله مع البشر، كما يكشفها لنا الكتاب المقدس، تستطيعون أن تجدوا مثال الأبوة القادرة على أن تؤثر إيجابياً على مسيرة أولادكم التربوية، دون خنق عفويتهم من جهة، ودون تعريض شخصيتهم التي لا تزال في طور النمو إلى صدمات التجارب الناجمة عن عدم الأمان وعن الانعزال من جهة أخرى.

لم يتنازل يوسف وزوجته العذراء مريم الكلية العفة عن سلطتهما الأبوية، إذ ورد في الإنجيل أن يسوع "كان طائعاً لهما" (لوقا ٥١/٢). وهذه الطاعة التي شهدتها جدران بيت الناصرة كانت طاعة ببناءة أتاحت للطفل يسوع أن "يتسامى في الحكمة والقامة والحوطة عند الله والناس" (لوقا ٥٢/٢).

(يوحنا بولس الثاني، يوسف رجل إيمان وصلاة، ١٩٨٣/٣/١٩)

أيتها القديسة مريم، يا والدة الإله ...

احفظي لي قلبي مثل قلب طفل،
نقياً شفافاً كالنبيع.

احصلي لي على قلب بسيط

لا يستمتع بالحزن،

قلب رائع يهب نفسه،

قلب حنون رؤوف،

قلب سخيّ وفيّ،

لا ينسى الخير

ولا يحقد بسبب الشرّ.

اجعليه قلباً وديعاً متواضعاً،

قلباً يُحبّ دون أن يشترط المعاملة بالمثل،

ويبتهج إذا غاص في قلب آخر

أمام ابنك الإلهي،

قلباً طيباً لا يقهر،

لا يغلقه أي عقوق

ولا يتبعه أي عدم اكتراث،

قلباً يتألم لمجد يسوع المسيح،

مجروحاً بحبه

ولا يشفى جرحه إلا في السماء.

(الأب ليونس غرانميزون، ١٨٨٦) Père Léonce de Grandmaison

(هذه الصلاة كان يتلوها إدمون ميشلي *Edmond Michelet* المقاوم الشهير في بلدة "بريف لا غيارد"، هو وزوجته. وقد سمّي "الكاهن المرشد لفرنسا" من قبل الكاتب أندريه مالرو *André Malraux*، وخلفه عام ١٩٦٩ في وزارة الثقافة. وكان قد حمل القربان المقدس إلى عدد كبير من سجناء معتقل "داشو" *Dachau*، مخاطراً بحياته. وقد تمّ حفر بعض كلمات هذه الصلاة في معبد كنيسة سيّدة السلام على بعد بضعة كيلومترات من بلدة "بريف"، حيث يوجد ضريح كل منهما.)



عذراء " الآية "

تمثل أيقونة العذراء "المصلية" امرأة تتضرع إلى الله رافعة ذراعيها، وهي أقدم الرسوم المسيحية، وكثيراً ما تُشاهد على الجداريات في سراديب الدياميس.

وعذراء "الآية"، سواء أكانت بقامتها الكاملة أم بنصفها الأعلى، تومئ هي أيضاً بإشارة الصلاة، حاملة المسيح على قلبها. أما الهالة الدائرية أو البيضوية الشكل التي تحيط بابنها، فترمز إلى المجد الإلهي الذي لم يفارقه أبداً عندما تجسّد في أحشائها. ويوجد ضمن الهالة التي تحتوي الصليب ثلاثة أحرف يونانية تفيد "أنا هنا"، مشيرة إلى يسوع.

ورد في سفر أشعيا (١٤/٧) نصٌّ تمّ تفسيره في العديد من الأحيان على أنه يُنبئ بالحبلى البتولي بيسوع، وإليه يعود أصل إطلاق تلك التسمية على هذه الأيقونة. فقد جاء فيه: "يؤتيكم السيّد نفسه آية : ها إنَّ العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه "عمانويل".

لهذه الأيقونة اسم آخر: "بلا تيتيرا"، أطلقه عليها الروم وهو يعني: "الأرحب من السماوات"، وذلك باعتبار أن مريم حملت في بطنها ذلك الذي لا تستطيع السماوات احتواءه. وقد ركز آباء الكنيسة في الشرق والغرب على هذا التناقض الظاهري في عملية التجسّد: "يا له من مزيج عجيب. مَنْ هو كائن تحوّل، ومن هو غير مخلوق خُلق، ومن هو غير محدود حدّاً. (القديس غريغوريوس النازيانزي).

وتعيد الأيقونة إلى الأذهان الإيمان الرائع الذي رافق استقبال مريم كلامَ الرّب، فقد آمنت بلا تردّد بالسرّ الذي كان سيتمّ فيها، وحملت الطفل يسوع في قلبها قبل أن تحمله في بطنها، كما جاء مراراً في أقوال آباء الكنيسة.

وبتأملنا الأيقونة، نرى أنها تدعونا إلى أن نترك، نحن أيضاً، المسيح يسود في قلوبنا.

تطلب عذراء الأيقونة ذلك من ابنها لأجلنا، فبإركاننا بيده اليمنى ويمسك بيده الأخرى سفر الإنجيل، حيث كُتب: "طوبى لمن يسمع كلام الله ويحفظه" (لوقا ١١/٢٨).

تلك هي، حسب يسوع ذاته، العظمة الحقيقية لمريم وجذر طوباويّتها العميق، فهي لم تكتف بحمل طفلها وتغذيته بحليبها، بل أصغت إلى كل تعليمه، وتأمّلت فيه طويلاً في قلبها. فعلياً نحن أيضاً أن نحذو حذوها، ونقتدي بها بفضل شفاعتها كأتم.

وكما يلاحظ في سائر الأيقونات، تذكّرنا النجوم الثلاثة الموجودة على معطف مريم، بسرّ بتوليّتها قبل ولادتها يسوع وفي أثنائها وبعدها، كما أنّ الأحرف اليونانية تشير إلى ما يلي: الأربعة في الأعلى تعني "والدة الله"، والأربعة الأخرى تعني "يسوع المسيح".

وفي أسفل الأيقونة، أضاف الرسّام هنا دائرة عليّقة تشتعل، يرمز لهيبتها إلى الحبّ الذي كان يحرق قلب مريم.

* * *

العيش في مريم

إنّ أيقونة "عذراء الآية" تعيد إلى أذهاننا، بطريقتها الخاصة، الحقيقة الكائنة في عمق أفكار كل من القديس "لويس ماري غرينيون دي مونفور" والأب "ماكسيميليان كولب"، وهي أننا "مقيمون في مريم". وقد عبّر المفكر "جان غيتون" عن الفكرة ذاتها انطلاقاً من حديث نيقوديمس مع يسوع (يوحنا ٤/٣) فكتب قائلاً:

" إنّ المسألة الروحيّة التي تطرح نفسها بشأن مريم، تبدو لي موصوفة تماماً في كلمات نيقوديمس ليسوع، وهي تتعلق بكيفية عودة الإنسان إلى طفولته، كما لو كان "يدخل في بطن أمّه ثانية، وهو شيخ". إنّ حياة الروح، من خلال هذه الزاوية، هي عكس حياة الجسد. ففي الحياة الروحيّة، كلما ابتعد الجسد عن رحم الأمّ نما وتنبّت، لأنّ الحياة هي مغادرة هذا الوسط الأوّلي لتكوين وجود مستقل. أمّا في الحياة الروحيّة ذات النمط المريمي، فيجذبنا نفوذ قوي ورقيق من الخارج، ويجعلنا، إنّ صحّ القول، نتراجع لننّحد بالمسيح وبالروح القدس الذي نعود إليه. وذلك يتمّ عن طريق وسيط يشبه الأمّ، هو التأثير والدائرة المريميّةان".

(العذراء مريم، أوبييه، ١٩٤٩، ص 208)

مريم مثال إيماننا

"طوبى لك، يا مَنْ آمَنْتِ" (لوقا ١/٤٥)

إنَّ أوَّل تطويبة في الإنجيل أعلنت مريم طوباوية بسبب إيمانها، وقد وجَّهتها إليها نسيبتها أليصابات يوم استقبلت مريم في بيتها قائلة: " أنى لي أن تأتيني أم ربي؟ طوبى لك، يا من آمنت بأن ما بلغها من عند الرب سيتم" (لوقا ١/٤٣-٤٥).

وقد ركَّز يوحنا بولس الثاني بحق، في رسالته البابوية حول "أمّ الفادي"، على الدور الذي لعبه إيمان مريم في تحقيق خلاصنا. فعندما يتكلم الله، يجب أن نجيبه "بطاعة الإيمان" (رومة ١٦/٢٦ و ١/٥-؛ ٢ كورنثس ١٠/٦-٥). يقول البابا: "يجد هذا التعريف للإيمان في مريم تحقيقه الكامل. واللحظة الحاسمة كانت البشارة، وكلمات أليصابات بالذات تركَّز على تلك اللحظة قبل أي شيء آخر" (الفقرة ١٣ من الرسالة البابوية).

أولاً: "نعم" الناصرة

دعونا نتصوّر كم كان إيمان مريم قويًا عندما سمعت الملاك يقول لها: "إنَّ الروح القدس يحلّ عليك وقدرة العليّ تظللُك" (لوقا ١/٣٥). فقد آمَنْت فورًا، ومن كل قلبها، وبدون أيّ تردد، "أن ما من شيء يُعجز الله". فقدّمت جسدها إلى فعل الروح القدس، وأصبحت بذلك أمًا، ولم تشك لحظة واحدة في المعجزة التي كانت آنذاك تتمّ فيها.

وكما ورد أيضًا في الرسالة البابوية، إنَّ هذا الجواب المملوء إيمانًا يتضمّن "استعدادًا تامًا لفعل الروح القدس الذي ما فتىّ يجعل الإيمان أكثر كمالًا عن طريق عطايها" (الفقرة ١٣). يمكن إذا القول مع آباء الكنيسة إنَّ "مريم حبلت بطفلها في ذهنها وفي قلبها المؤمن قبل أن تحبل به في بطنها".

ومن الصواب أن يقارن إيمان مريم بإيمان إبراهيم "أبينّا في الإيمان" (رومة ٤/١٢). وقد جاء في الفقرة ١٤ من الرسالة البابوية: "في تنسيق عملية الخلاص التي كشفها الله، يمثل إيمان إبراهيم بداية العهد القديم، بينما يبدئ إيمان مريم العهد الجديد عند البشارة. ومثلما آمن إبراهيم "راجيًا على غير رجاء، فأصبح أبًا لعدد كبير من الأمم" (رومة ٤/١٨)، كذلك آمنت مريم لحظة البشارة أنّها بقدره العليّ وبالروح القدس ستصبح أمًّا لابن الله، بعد أن صرّحت عن وضعها كعذراء (أنى يكون هذا ولا أعرف رجلاً).

ثانيًا: إيمان وفيّ

كانت حياة مريم كلّها عبارة عن "مسيرة في الإيمان"، رغم الأحداث التي بدت وكأَنَّها تشكّل إخلالًا بالوعد المعطاة لها.

فقد أعلمها الملاك أنّ ابنها سيكون عظيمًا، وأنّه سيكون ملكًا. وإذ به يولد في مغارة ويتعرّض بسرعة لمحاولة قتل.

وتنبأ أشعيا أنّه على المسيح سيستقرّ روح الربّ وروح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة، وإذ ببسوع يبقى ثلاثين عامًا في الناصرة من دون إنجاز أيّة أعجوبة، ودون إظهار أيّة مواهب استثنائية.

وكان سمعان قد وعد مريم أنّ ابنها يسوع سيكون نور الأمم، وكانت المزامير التي تتلوها تعلن باستمرار التجمّع الذي سيحصل عند مجيء الأزمنة المسيحية: "اللهم اجعل أحكامك للملك وعدك لابن الملك ... يسجد له جميع الملوك وتتعبد له كل الأمم" (المزمور ٧٢/١١-١) وها هو ابنها، بعدما بدأ رسالته، لم يستطع حتى الحصول على رضى أهالي قريته (متى ٦/٦).

وكان من المفروض أن يعطيه الله عرش أبيه داود، وها هو ينهي حياته مسمرًا على الصليب بين لصين!

يجب أن نعيد قراءة الإنجيل بكامله، محاولين إدراك الإيمان الشجاع الذي عاشته به مريم، يوماً بعد يوم، الأحداث المحيرة التي تخللت حياتها. والإنجيل، بطبيعة الحال، لم يغفل الإشارة إلى دهشة أبوي يسوع عندما وجداه في اورشليم، بعد أن أمضيا ثلاثة أيام في البحث عنه، وإلى أنه لم يرَ من الضروري، حتى أن يعتذر لهما! "يا بني، لم صنعتَ بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحتُ عنك متلهفين. قال لها: ولمَ بحثتما عني؟ ألم تعلمَا أنه يجب عليّ أن أكون عند أبي؟ فلم يفهما الكلمة التي قالها لهما" (لوقا ٤٨/٢-٥٠).

تشكل هذه العبارة تعزية لنا، لأننا لا نفهم نحن أيضاً دائماً ما يحدث لنا، ونجتاز فترات يبدو لنا فيها سلوك الله غير متماسك. فلا نتبين ما يقصده... "إلى أين يريد أن يقودنا؟ ما هو منطقته؟"

في مثل تلك اللحظات، يجدر بنا أن نتذكر أنّ مريم نفسها لم تفهم دائماً سلوك ابنها ولكنها أسوة بإبراهيم وحتى بطريقة أفضل منه، استندت إلى الوعود التي قطعها لها الله، وإلى هذه الوعود من دون سواها:

"وأنا عليك توكلتُ يا ربّ، قلت إنك أنت إلهي" (المزمور ١٦/٣١).

"ينطق لساني بأفوالك لأنّ جميع وصاياك عدل" (المزمور ١١٩/١٧٢).

ثالثاً: انتظار القيامة باطمئنان

لذلك دأبت التقاليد على الاعتقاد بأنّ مريم انتظرت بثقة قيامة ابنها، منذ وضعه في القبر. وكان يسوع قد أعلن ذلك عدة مرات (مرقس ٣١/٨، ٣١/٩، ٣٤/١٠)، وأمنت به مريم.

وبينما ساور الرسل بأس عميق بسبب الطريقة التي تمّت بها "تصفية" معلّمهم من قبل أعدائه، بقيت مريم راسخة في إيمان لا يتزعزع. وفي مساء سبت النور، كانت الوحيدة التي رجّت "على غير رجاء" أن يقوم يسوع من الأموات. وهذا هو السبب الذي حدا الكنيسة على ذكر هذا الإيمان غير المشروط لمريم، في ليتورجيا يوم السبت، وهو يوم الأسبوع المكرّس لها بشكل خاص.

رابعاً: دور العلامات والآيات في إيماننا

يجب أن نحاول، على غرار مريم، عدم ربط إيماننا بالسرعة التي يستجيب بها الرّب لطلباتنا. وعلى غرارها أيضاً، علينا أن نرضى صابرين بالتأخير الذي غالباً ما يفرضه الرّب على تحقيق أكثر رغباتنا المشروعة. ويجب عندها أن نذكر كلمة النبي أشعيا، التي جاء فيها: "ينتظر الرب ليرحمكم" (١٨/٣٠). والأمر الأكيد هو أنه سيدهشنا دائماً في صبرنا.

هذا ونكون محقين تماماً إذا انتبهنا إلى العلامات الأكثر بروزاً، التي يعطينا إياها الرّب أحياناً، ليبدل على وجوده وسط الكنيسة. والعداء مريم لا تمنعنا من ذلك، بالعكس! ألم تكن هي التي "سببت" أول أعجوبة أنجزها يسوع في مستهلّ رسالته في قانا الجليل؟ فقد أتاح لتلاميذه أن يؤمنوا حقاً به: "هذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجده، فأمن به تلاميذه" (يوحنا ١١/٢). قبل قانا، "تبع" التلاميذ يسوع. أما بعد قانا، "فأمنوا" به.

لا تزال تحدث، في أيامنا هذه، معجزات رائعة وحالات شفاء مدهشة... في مدينة لورد أو في غيرها. إنّ الله، إلى جانب العلامات الخفية، غمّزات العين التي نتلقاها منه في العديد من الأحيان كدليل على مروره في حياتنا، يريد أن يعطينا علامات محسوسة نستطيع لمسها، وتدل على حضوره الودود. فعلياً ألا نحتقرها، وألاً نلعب دور الشطار الذين لا يحتاجون إليها!

بالطبع، ليس من الضروري مشاهدة المعجزة بأنّ العين للتحملي بإيمان متين. وبدلاً من أن نطلب، على غرار توما، ظاهرة مرئية "من أجلنا نحن فقط"، يجب أن نرضى متواضعين وطائعين بالمعجزات التي حدثت في مكان آخر، ربّما في مكان بعيد جداً، إنّما أنجزها الرّب لتوطيد إيماننا جميعاً. ولا بدّ من التذكير هنا أنّ يسوع لم يؤاخذ توما لأنه أراد تأسيس إيمانه على علامة (إذ إنّ الرّب خلال حياته العامّة أكثر من الآيات لبعث الإيمان في القلوب)، بل لأنه طالب بأية "له وحده". كان يتحمّ على توما أن يكتفي بالاستناد، كما نفعل نحن، إلى شهادة الذين سبق لهم أن شاهدوا المسيح القائم من الموت: "أمنتُ لأنك رأيتني. فطوبى للذين يؤمنون ولم يروا" (يوحنا ٢٩/٢٠).

إنَّ أوَّل تطويبة في الإنجيل صدرت عن أليصابات، عندما أشادت بإيمان مريم غير المشروط. وفي هذه التطويبة الأخيرة، يعلن يسوع الطوبى لكلِّ الذين سينالون في الأجيال القادمة نعمة الإيمان، لا بدون علامات، وإنَّما بالاكتفاء، على غرار مريم، بالعلامات التي يعطيهم الله إياها من دون أن يطالبوا بعلامات خاصة، وبإقتناعهم في سياق حياتهم بأن دروب الله لا تتفق بالضرورة مع الدروب التي فكروا في سلوكها.

* للحوار في الفرقة:

- ١- هل نقدر نعمة الإيمان التي تلقيناها من الله حق تقدير؟ ماذا نفعل لتنميتها؟
- ٢- ربما كانت أول ردة فعل صدرت عنا في المحن التي تخللت حياتنا، ربَّما كانت الانهيار أو الغضب أو التمرد أو الشعور بالفراغ. فهل لجأنا بعد ذلك إلى نصوص من الكتاب المقدس ساعدتنا على الاحتفاظ بإيماننا بحضور الربِّ؟
- ٣- هل ساعدنا أحياناً استذكارنا للآلام التي عانى منها يوسف ومريم؟

* للحوار بين الزوجين:

هل يخطر على بالنا من حين إلى حين أنه بإمكاننا، ويجب علينا، أن يكون كل منا تجاه الآخر "آية" أو "علامة" لحبِّ الربِّ وحنانه غير المحدود؟

+ صلاة لاجتماع الفرقة

(إنجيل يوحنا ١/٢-١١)

"كان في قانا الجليل عرس وكانت فيه أم يسوع . فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس. ومست الحاجة إلى الخمر، لأن خمرة العرس نفذت. فقالت ليسوع أمه: "لم يبق عندهم خمر". فقال لها يسوع: "ما لي ولك أيتها المرأة؟ لم تأت ساعتي بعد". فقالت أمه للخدم: "افعلوا ما يأمركم به". وكان هناك ستة أجاجين من حجر لقضاء الطهارة عند اليهود، تسع كل واحدة منها مقدار مكياين أو ثلاثة. فقال لهم يسوع: "املأوا الأجاجين ماء". فملأوها حتى طفحت. فقال لهم: "اغرفوا الآن وناولوا وكيل المائدة". فناولوه فذاق وكيل المائدة الماء الذي صار خمراً، وكان لا يدري من أين أتت، غير أن الخدم الذين استقوا كانوا يدرون. فدعا وكيل المائدة العروس، وقال له: "جرت عادة الناس أن يقربوا الخمرة الجيدة أولاً. فإذا أخذ منهم الشراب، قاربوا ما كان دونها في الجودة. أما أنت، فأخرت الخمرة الجيدة إلى الآن". فهذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجده فأمن به تلاميذه".

خمرة الوليمة المسيحانية

إنَّ أوَّل أعجوبة أنجزها يسوع لم تكن شفاء مريض أو طرد أرواح شريرة، بل كانت هدية عيد، هدية عرس.

وكان الأنبياء قد وصفوا وليمة العصر المسيحاني على أنها مأدبة تسيل فيها الخمرة بغزارة (أشعيا ٦٢/٢٥ وزكريا ١٧/٩). أما يسوع فقد كشف هويته بجعله الخمرة تسيل وافرة في قانا (وردت لفظة "خمرة" ست مرات في النص)، وبواسطته أبرم الله مع بني البشر عهداً زوجياً جديداً، وسكب في قلب شعبه فرحاً لا يستطيع توفيره إلا خمرة الملكوت المسيحاني الجديدة. ولكن عندما سنأتي "الساعة"، سيراق دم حمل الله، دم العهد الجديد الأزلي الذي يستطيع وحده أن يجلب إلى الناس "التطهير" النهائي. فالذين يشتركون في المأدبة السماوية هم الذين "غسلوا حللهم وبيضوها بدم الحمل" (الرؤيا ١٤/٧).

ساعدينا يا مريم على الوفاء بالتزاماتنا ...

إليك يا مريم أتوجّه اليوم، لأنك أنت هي التي لفظت الـ"نعم" الحاسمة في انطلاقة عظيمة من الإيمان والرجاء... قلت "نعم" للطلب العجيب الموجّه إليك لاستقبال الرب في داخلك... قلت "نعم" رغم عدم الفهم وهبوط الهمة... قلت "نعم" أمام صدود ابنك الذي كان يريد إنجاز مهمته... قلت "نعم" للأعاجيب... لمخاطر التبشير... لإهانات المحاكمة... لآلام درب الصليب... لعار الصليب... للقيامة التي لا تصدق... للقدس يوحنا وللكنيسة الناشئة.

يا سيدة الـ"نعم"، أنت الوفيّة لجميع وعودك، علميني أن أستجيب دائماً لنداءات ابنك، وأن أكون وفيّاً، مهما بلغ الثمن، لكل الالتزامات التي تعهدتُ بها تجاه عائلتي، تجاه أصدقائي، في مهنتي، في كنيسة، في تجاه فقراء العالم الثالث والرابع.

يا سيدة الـ"نعم"، أنت التي كانت تواظب كل يوم على الصلاة، ساعديني على أن أثابر على الصلاة، فهي وحدها ستعطيني الشجاعة والقوة لأعيش وفقاً لإنجيل يسوع المسيح. آمين.

(جان بيبير دوبوا دومي، مريم - صلوات 1987 (Jean-Pierre Dubois-Dumée, Marie, Prières, 1987)

نصوص

■ البابا يوحنا بولس الثاني يحدثنا عن إيمان مريم

الفقرة ١٧- بعد أن وُجد يسوع في الهيكل، وكان قد بلغ الثانية عشرة، كان جوابه عن سؤال أمّه "يا بني، لم صنعت بنا هكذا؟": "ألم تعلما أنّي ملتزم بشؤون أبي؟" ويزيد الإنجيلي: "أما هما فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما". فيسوع، إذن، كان يعي أنّ "الأب وحده يعرف الابن" (متى ١١/٢٧)، إلى حدّ أنّ تلك التي أعطيت أن يكشف لها، بشكل أكثر عمقاً، سرّ بنوّته الإلهية، أعني والدته، هي نفسها لم تكن تحيا في صميم هذا السرّ إلا بالإيمان! وإذا كانت تعيش إلى جانب ابنها، يجمعهما سقف واحد، "وتحفظ في أمانة اتحادها بابنها"، "كانت تتقدّم في مسيرة الإيمان"، كما يشير المجمع. وظلّ الأمر كذلك حتى في سياق حياة المسيح العلنية. حتى إنّ الطوبى "التي آمنت"، التي جاءت على لسان أليصابات، كانت تتكامل يوماً بعد يوم.

الفقرة ١٨- هذه الطوبى بلغت ملء معناها عندما وقفت مريم عند قدمي صليب ابنها (يوحنا ١٩/٢٥)، ويعلن المجمع أنّ ذلك لم يحدث "بدون قصدٍ إلهي": "لقد ظلت مريم أمينة للاتحاد بابنها حتى الصليب، ومزقتها الألم في ضراوة، إذ كان قلبها، وهو قلب أمّ، مشاركاً لابنها الوحيد في تقدمة ذاته محرقة. وقد رضخت، في حبّ، لتقدمة هذه الذبيحة التي ولدت من أحشائها". واتحادها بابنها هذا أملاه الإيمان نفسه الذي أملى عليها طاعتها حيال ما كشفه لها الملاك في البشارة. لقد سمعت آنذاك أيضاً "أنّه سيكون عظيماً... وسيعطيه الربّ الإله عرش داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الدهر، ولن يكون لملكه انقضاء" (لوقا ١/٣٢-٣٣). والآن ها هي واقفة عند قدمي الصليب. إنّ ما تشهده ينسخ كلياً هذه الكلمات. فابنها ينازع على هذه الخشبة كمجرم "مزدري ومخدول من الناس، رجل أوجاع ومتمرس بالعاهات... مزدريّ فلم نعبأ به... سُحِق لأجل آثامنا" (أشعيا ٥٣/٥). ما أعظم طاعة الإيمان، وكم تتجلّى فيها بطولة إيمان مريم حيال "أحكام الله البعيدة عن الإدراك". إنّ "استسلام مريم لله" هو استسلام العقل والإرادة، استسلام لا محدود لذلك الذي "ما أبعد طرقه عن الاستقصاء" (روما ١١/٣٣)! وما أقوى عمل النعمة في نفسها! وما أعمق أثر الروح القدس نوراً وسنداً!

إنّ إيماناً كهذا يوحد مريم اتحاداً كاملاً بالمسيح في مرحلة تلاشي الذات هذه. المسيح... "القائم في صورة الله، الذي لم يعتد مساواته الله حالة مختلصة، بل لاشي ذاته أخذاً صورة عبد صائراً شبيهاً بالبشر". وعلى الجلجلة، وضع نفسه أكثر، "وضع نفسه وصار طائعاً حتى الموت، بل موت الصليب" (فيلبي ٢/٥-٨). وعند قدمي الصليب، شاركت مريم بالإيمان في سرّ هذا التلاشي المدهش. نجدنا، هنا، حيال "التلاشي" الإيماني الأكثر عمقاً في تاريخ البشر. فبالإيمان، تشارك الأمّ في موت ابنها، موته الفدائي. ما أبعد هذا الإيمان النير عن إيمان الرسل الهاريين! وقد أكد يسوع، بصليبه على الجلجلة، وبشكل نهائي، أنّه "هدفٌ للمخالفة"، كما سبق وتنبأ سمعان. وفي الوقت نفسه، كانت تتحقق، على الجلجلة، كلمات سمعان هذا لمريم "وأنت سيجوز سيفٌ في نفسك".

■ تعليق الأب كونغار Congar

كل شيء معلق على إيمان مريم التي آمنت بالكلمة أولاً. وكما لاحظ البابا يوحنا بولس الثاني، (في الفقرتين ١٤ و ٢٦)، إنّ أول مخطط للعهد ارتبط بإيمان إبراهيم البطولي، وكل العهد الجديد عُلق على إيمان مريم البطولي. وقد نضيف من جهتنا أنّ تأسيس الكنيسة مرتبط بمجاهرة بطرس بإيمانه. وكل هذه الأعمال التي تمت في وقتٍ معيّن من التاريخ، كانت السبب في ما نحياه واقعياً الآن. وهكذا نعيش من إيمان إبراهيم ومريم وبطرس [...].

تحدّث البابا عن مسيرة مريم في الإيمان من بداية تأمله إلى نهايته.

"إنّ طريق إيمان مريم لم ينته، وقد فكّرت كثيراً في هذا الأمر. حسب ما ورد في الكتاب المقدس، كانت مريم حاضرة عند الصليب. وبعد مرور خمسين يوماً كانت أيضاً حاضرة في العنصرة. وقد تراءى يسوع القائم من الموت عدّة مرات في الفترة الفاصلة بين هذين الحدثين. ومن المستحيل أن تبقى مريم، التي كانت مع يوحنا وسائر الرسل، غريبة عن تلك الأمور. ولكن ها قد أتت العنصرة. وفي الأيام التي سبقتها منذ صعود المسيح، كانت مريم مع غيرها ومع الرسل الأحد عشر بالإضافة إلى مئّيا، وكانت تصلي برفقتهم (حدّث ذكرته رسالة المجمع الفاتيكاني الافتتاحية إلى العالم). وجاء في تعليق الحبر الأعظم (رقم ٢٧): "إيمان مريم هذا، الذي يؤدّن ببداية العهد الجديد الأبدي، عهد الله في يسوع المسيح، هذا الإيمان الشجاع يسبق شهادة الكنيسة الرسولية، ويبقى في قلب الكنيسة محفوظاً كإرثٍ خاص من وحي الله [...]. وهذه المشاركة النشطة في إيمان مريم هي التي تحدّد حضورها الخاص في مسيرة الكنيسة بوصفها شعباً جديداً لله على الأرض".

لم يذهب المجمع إلى هذا الحدّ، بيد أنّ هذا الحضور هو الذي يبرّر وجود مجال روحانيّ يختبره كل من الكاثوليك والأرثوذكس، حيث يجدون فيه حرارة إيمانهم بالمسيح، وقد تحدّث جان غيتون، على ما أعتقد، عن فلك مريم المرتبط دوماً بفلك يسوع. ويرى الأرثوذكسيون أن ذكر القديسة مريم أم الله موجود في كل صلوات الكنيسة.

(أمّ الفادي، ١٩٨٧)

من أقوال ماكسيميليان كولب (١٩٣٦)

تجنّبوا الحزن لأيّ سببٍ كان، حتى لو كان هذا السبب وجيهاً. التزموا دائماً الهدوء وراحة الفكر. ودعونا نترك مخاوفنا إلى العذراء الطاهرة فسوف تغيّرها لما فيه خيرنا الأعظم.

* * *



La Vierge du sourire
Buissonnets – Lisieux

سَيِّدَةُ الْاِبْتِسَامَةِ

بتاريخ ١٣ أيار ١٨٨٣، وفي عيد العنصرة، شفيت تيريزا مارتان- التي سميت فيما بعد تيريزا الطفل يسوع - شفاءً فورياً، بمجرد التفاتها نحو تمثال العذراء الموجود بالقرب من سريرها في إحدى غرف بيت "بويسونيه" Buissonnets. وقالت في هذه المناسبة: "فجأة بدت لي القديسة العذراء جميلةً، إلي درجة أنه لم يسبق لي أن شاهدتُ مثل هذا الجمال، فكان وجهها يشع ودًا وحنانًا لا يوصفان، ولكن ما أثر في حتى أعماق نفسي هو ابتسامتها الرائعة.

ومن هنا تأتي تسمية "سيدة الابتسامة" التي أطلقت بعدئذٍ على التمثال الموجود حاليًا فوق مكان وجود ذخائر القديسة تيريزا في كنيسة الكرمل.

فُدم هذا التمثال هديةً للسيد مارتان عندما كان عازبًا، وبعد زواجه أصبح التمثال محور الصلاة العائلية في بيته. فكان يُحاط، في مستهل شهر أيار، بغصون من الزعرور تصل حتى سقف الغرفة، وكان الأولاد يستمتعون بإشعال العديد من الشموع أمامه.

وبعد وفاة السيد مارتان، نُقل التمثال إلى الكرمل ووضعت تيريزا في مدخل حجرتها. وبتاريخ ١١ حزيران ١٨٩٥، ركعت أمامه مع شقيقتها سيلين، وتلت فعل تقدمتها إلى الحب الرحيم.

وعندما نزلت تيريزا إلى مستوصف الدير، بتاريخ ٨ تموز ١٨٩٧، وجدت هناك عذراء "بويسوتيه"، التي كانت قد وُضعت في اليوم السابق على طاولةٍ أمام سريرها.

وفي الثلاثين من أيلول، في الساعة الثامنة عشرة، وبينما كان جرس صلاة التبشير يدقّ، ألقت تيريزا نظرة طويلة وللمرة الأخيرة على تمثال العذراء. وبعد ساعة لفظت أنفاسها الأخيرة.

يُلاحظ في التمثال أنّ قدمي العذراء تسحقان الأفعى الجهنميّة، وأنّ يديها ممدودتان كما لو كانتا تسكبان نِعَم السماء. وتشاهد هذه الوضعيّة في المداليّة العجائبيّة التي طلبتها مريم من القديسة كاترين لابوريه Cathérine Labouré، عام ١٨٣٠، في كنيسة شارع "باك" Rue du Bac.

ابتهال

مثل الطفل الضالّ الذي عُهد به إليك، أنا لك يا مريم!

مثل الطفل المرتعب الذي يخاف كثيرًا من الذئب، أبقى بالقرب منك يا مريم!

مثل الطفل المدلل الذي لا يكتفي بشيء، جنّت لأطلب منك يا مريم!

مثل الطفل الجريح الذي تلقى لطماتٍ عديدة، ألجأ إليك يا مريم!

مثل الطفل الخجول الذي يرغب في أن يفتحم الصعوبات، أريد أن أنتصر معك يا مريم!

مثل الطفل المتعطش إلى الطهارة والجمال، جنّت لأنظر إليك يا مريم!

مثل الطفل الباكي لأنّه وقع، أنتظر أن تساعدني يا مريم!

مثل الطفل الذي يبحث عن مكان وجود الحقيقة، أعلم أنّك ستقوديني إليها يا مريم!

مثل الطفل الفضوليّ الذي يريد أن يتعلّم كيف يقرأ في نظرة الله، أريد أن تعطيني عينيك يا مريم!

ومثل الطفل الصغير الذي يتوجه نحو أبيه الكليّ العظيمة، أريد أن أمسك يدك يا مريم!

* * *

لفصل السابع

مربية صلواتنا

"وكانوا يواظبون جميعاً على الصلاة مع بعض النسوة ومريم أم يسوع"

(أعمال الرسل ١٤/١)

كثيراً ما يجتمع أفراد العائلات المسيحية، حول أيقونة مريم أو تمثالها، ليتلوا معاً صلاة المساء. وهم بذلك، وبدون قصد، يحذون حذو الرسل بعد رحيل معلمهم. فقد اجتمع الرسل في العلية كي يتهيأوا لاستقبال الروح القدس الذي وعدهم به يسوع، وكانت برفقتهم بعض النسوة ومريم أم يسوع.

ومتلماً حصل في قانا الجليل، في مستهل حياة المسيح الرسولية، "كانت أم يسوع هناك". فساعدت التلاميذ على الصلاة خلال الأيام التسعة التي أعقبت صعود يسوع - وهي أول تساعية في تاريخ الكنيسة - وهيأتهم بمثلها وبقوة رجائها، على تلقي الفيض الهائل من الروح القدس الذي انسكب عليهم يوم العنصرة.

واليوم أيضاً، تدعونا الكنيسة إلى عدم نسيان حضور مريم وقربها الشديد منا كلما صلينا، وإلى تذكّر أنّ باستطاعتها مساعدتنا على أن نتلقى بدورنا "فائضاً" من الروح القدس، ممّا يفرّج قلوبنا ويجدّد شباب الكنيسة برمّتها.

كيف تستطيع مريم أن تساعدنا على الصلاة؟ بشفاعتها وبقدوتها أو مثالها.

أولاً: الصلاة مع مريم وأسوة بمريم

إذا نظرنا إلى مريم وهي تصلي في الإنجيل، نلاحظ الاتجاهين الرئيسيين اللذين يجب أن تسلكهما صلواتنا نحن، شخصية كانت أم جماعية.

- فكما فعلت مريم في قانا الجليل، تقتصر صلواتنا تارة على عملية عرض الأمور، بحيث نُعلم الربّ برغباتنا وحاجاتنا أو برغبات إخوتنا وحاجاتهم: "لم يبقَ عندهم خمر". وفي مثل هذه الحالة، نتق بالله إلى حدّ أننا لا نشعر بالحاجة إلى توضيح طلبنا، فإنه تعالى يعلم ما عليه أن يفعله أكثر منا. وعندئذٍ، وأسوة بامرأتين أخريين من الإنجيل هما مرتا ومريم شقيقتي لعازر، نكتفي بأن نقول له بالحاح: "ربّنا إنّ الذي تحبّه مريض" (يوحنا ٣/١١).

ما أحلى تلك الصلاة البسيطة المتجرّدة! كم هي مفعمة بالثقة! وكم سيُعجب بها الربّ، لأنّها لا تلجأ سوى إلى حبه، حبه الذي نعلم أن لا حدود له: "ربّنا، ذاك الذي تحبّه مريض!". وإذا بدا الله وكأنه يتعافل عمّا نسأله، فإننا نعلم علم اليقين أنّه يصغي إلينا ولن يتركنا نفتقر إلى شيء. أليس هو الراعي الصالح الذي يحرص على إعطاء كلّ من خرافه ما يحتاج إليه، وفي الوقت المناسب؟

- وتارة أخرى، تراودنا الرغبة، مثلما فعلت مريم عندما أنشدت نشيدها يوم زيارتها أليصابات، في أن نعلن مجدّ الربّ ونرفع الشكر إليه، مردّدين بعض الآيات:

"يا إلهي، كم أنت عظيم وجميل! أيّها الإله الحيّ العليّ، أنت إله المحبة، الإله الحاضر في كل خليقة!".

إنّ هذا البُعد في التسبيح هو بُعد جوهري بالنسبة إلى الصلاة المسيحية، وبه نبتدئ الصلاة التي علمنا إيها يسوع: "أبانا الذي في السموات، ليتقدّس اسمك". بيد أنّ صلاة التضرّع تروق للربّ بذات المقدار ويُسرّ بها إذا رأى أبناءه يطلبون منه بدون خوف ما يحتاجون إليه، بدءاً بخبزهم اليومي! فماذا سيكون الأب الذي لا يستطيع أولاده أن يعرضوا له بثقة كلّ بؤسهم ورغباتهم وحياتهم؟

يُنْفِق هذان الاتجاهان مع حركتي الروح القدس اللتين يُحدثهما فينا.

فالروح القدس هو في آن واحد عطية الأب الدائمة لابنه، والانطلاق المستمر من الابن نحو الأب. وعندما نفهم جيداً هذين الاتجاهين اللذين يطبع بهما الروح القدس صلاتنا، تتبسّط حياتنا الروحية بقدر كبير.

- فتارة، نستقبل الروح القدس الذي يعطينا إياه الأب عن طريق المسيح، فتصبح صلاتنا انفتاحاً لحبّ الأب، لأنّ حبّه وعطيّة روحه هما أمر واحد بالنسبة إليه، إذ تلك هي الطريقة الأزليّة التي يحبّ بها! الصلاة إذًا، هي أن نترك نهر الماء الحي يغزونا، هذا النهر الذي ينبع من الأب ويمرّ في جنب يسوع المطعون.

- وتارة أخرى، نترك الروح القدس يجرفنا نحو الأب، مردّدين بمحبّة وثقة ذات الكلمة التي ما فتى يسوع يوجّهها إلى أبيه: "أبّا، يا أبّت!" (مرقس ١٤/٣٦) والتي ذكرها القديس بولس في رسالته إلى أهل رومة (١٥/٨) قائلاً: "إنّ الروح القدس ينضم إلى قلوبنا في العمق ليجعلنا ننادي: "أبّا، يا أبّت!"

وهكذا نلاحظ أنّ صلاتنا - التي هي تنفّس أرواحنا - تقوم بحركة مزدوجة على غرار الرئتين عندما نتنفس، فتارة أتلقي الروح الذي يأتي ليملاً قلبي ويجدده تجديداً جذرياً، وتلك هي مرحلة الشهيق، وتارة أخرى تجرّفني هذه النفحة الإلهية فأنقاد نحو الأب، وتلك هي مرحلة الزفير.

ويحدث أحياناً أن يشعر المسيحيّ بتحريض الروح القدس في عمق قلبه. وهذا ما اختبره اغناطيوس الأنطاكيّ على متن السفينة التي كانت تنقله إلى رومة ليُرمى به إلى الوحوش المفترسة، فقال: "أسمع ماءً حياً يهمس في داخلي: تعال نحو الأب". ويمكن القول هنا إنّ الروح القدس في تلك اللحظة، لا يُعشّ المسيحيّ وحسب بل يحركه أيضاً. وعندئذ يتحقق ما كتبه القديس بولس إلى أهل رومة (١٤/٨): "إنّ الذين ينقادون إلى روح الله يكونون حقاً أبناء الله". عندئذ، لا تعود هناك حاجة إلى "التجديف" بقوة اليدين للتقدم نحو الله، إذ إنّ الريح تهبّ وتنفخ في الأشرعة.

يُطلق التقليد المسيحيّ تسمية "مواهب الروح القدس" على تلك "الأشرعة" التي، إذا ما تم بسطها بشكل جيّد، تتيح لتلاميذ المسيح أن يستفيدوا كلياً من "حركة" روح الله. وهذه العطايا هي أيضاً "رادارات" أو هوائيات حساسة جداً، تمكّن المسيحيين من التقاط "رسائل" الروح القدس. ويزيد مردودها كلما زاد نشاطها، مما يفترض أن نتعوّد الإصغاء إلى هذا المعلم الداخلي، الذي يلقن بهدوء ولا يكتشف نفسه إلاً للقلوب المتواضعة المقتنعة بأنّها لا تستحقّ شيئاً.

ثانياً: التضرّع إلى مريم

ليست مريم مثال صلاة لا يُضاهي فقط، بل إنّها أيضاً الأمّ التي تشفع لنا باستمرار، مع المسيح وبالمسيح، لدى الأب. ومن حقنا أن نلجأ إلى شفاعتها كما فعلت الطقوس الكنسيّة منذ نشأتها.

والجدير بالذكر أنّ يسوع أنجز أولى أعاجيبه في قانا الجليل، بناءً على طلب ملحّ من أمّه، حتى إنّها عجّلت في جعله يكتشف نفسه إن صحّ القول. فعندما لفتت مريم نظر ابنها إلى نفاذ الخمر، ممّا قد يكدّر حفلة العرس، أجابها أنّ ساعته لم تأت بعد. إلاً أنّ ذلك لم يمنعها من أن تقول للخدم: "افعلوا ما يأمركم به". وإذ ببسوع يطلب إليهم على الفور أن يملأوا الأجاجين ماء!

من المعقول جداً أن يكون إلحاح مريم اللطيف قد جعل يسوع يعي أنّه حان الوقت ليقدم إلى تلاميذه علامة ساطعة تدلّ على هويّته المشيحية. ونعيد إلى الأذهان أنّ صلواتنا لمريم لا ترمي إلى إثارة محبّتها كأمّ، أو إلى زيادة تلك المحبّة. فنحن، عندما نكرر السلام الملائكي بدون كلل، لا نستهدف جعل مريم تزيد من صلواتها لأجل أبنائها، بل تخصيص الوقت الكافي لتأملها وهي تصلي لأجلنا فنفتح لاستقبال كل النعم التي نطلبها من أجلنا. فلا نخشى إذًا أن نتضرّع إليها، فالله لا يغار من لجوئنا إلى شفاعتها كي يسكب علينا عطايا روحه، إذ هو الذي أراد ذلك. لا يحتاج الله مطلقاً كي يحبّنا ويغمرنا بحسناته لا إلى صلواتنا ولا إلى شفاعة الطغمت السماويّة! إنّهُ يحبّنا إلى حدّ أنّه يريد أن يصيح في حاجة إلينا. وبطريقة خفية، يريد أن يتمكن أبنائنا من أن يصلوا بعضهم لأجل بعض: وهذا هو سرّ شركة القديسين، السرّ الذي حظي بإعجاب القديس أوغسطينوس منذ ذلك الحين.

فلا نخاف إنّنا من التضرّع إلى مريم، مدرّكين سعادتها إذا ما رأتنا نلجأ أيضاً إلى شفاعة سائر القديسين، الذين هم في السماء وعلى الأرض.

وما أكثر الطاقة التي نهدرها عندما نهتمّ بأشغالنا، ساهين عن هبة يسوع الرائعة، بإعطائنا مريم أمّاً لنا.

بتاريخ ١٢ أيار ١٩٣٠، عبّر الطيار جان مرموز Jean Mermoz، للمرة الأولى، المحيط الأطلسي على متن طائرة مائيّة، فمرّ فجأة في منطقة واقعة في ظلام حالك من جرّاء المطر الذي كان يهطل مدرارًا. وفي تلك اللحظة بالذات حصلت مفاجأة سارة، إذ التقط برقية من والدته جاء فيها: "حبيبي جان، أنا معك - أمك".

أجل، في جميع العواصف التي تجتاح حياتنا المتقلّبة، تكون مريم هناك، مثلما كانت في قانا الجليل! هذا ولن يتمّ التقارب بين المسيحيين المفترقين بسرعة أكبر، إن هم تغافلوا عن أهمية الدور التي تقوم به مريم. إنّها "أمّ الكنيسة" بالمعنى التامّ للكلمة، لذلك لا يمكن أن تتمّ المصالحة المسكونيّة إلّا معها وحولها. غالبًا ما تساهم الأم، ضمن عائلتها، في تهدئة النزاعات التي تحصل بين الإخوة والأخوات. فمن باب أولى أن يكون الأمر كذلك عندما يتعلّق الموضوع بإخوة يسوع وأخواته الذين عهد بهم هو بنفسه إلى عناية أمّه.

* للحوار في الفرقة:

- ١- كيف نعيش من الروح القدس؟ هل دخل إلى حياتنا ذات يوم، كما فعل مع الرسل يوم العنصرة؟ أو أصبح منذ أمد طويل الروح الذي نحاول استقباله في قلوبنا كل يوم بصورة أفضل؟
- ٢- لم تشغّل مريم قط أيّة مرتبة من المراتب الكنسيّة ولم تقم بأيّة رسالة. بماذا يستطيع دورها في تاريخ خلاصنا أن يثير أفكارنا حول مكانة النساء في الكنيسة؟

* للحوار بين الزوجين:

هل حققتنا بعض التقدّم هذا العام في صلاتنا الزوجيّة؟ هل مريم حاضرة بقدر أكبر في حياتنا؟

صلاة لاجتماع الفرقة

(من أعمال الرسل ١٢/١ - ١٤ و ١/٢-٤)

فرجع الرسل إلى اورشليم من الجبل الذي يقال له جبل الزيتون، وهو قريب من اورشليم على مسيرة سبت منها. ولما وصلوا إليها سعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها، وهم بطرس ويوحنا ويعقوب وأندراوس وفيليبس وتوما وبرتلماوس ومتى ويعقوب بن حلفى وسمعان الغيور ويهوذا بن يعقوب. وكانوا يواظبون جميعًا على الصلاة بقلب واحد، مع بعض النسوة ومريم أم يسوع وإخوته ...

ولما أتى اليوم الخمسون، كانوا مجتمعين كلهم في مكان واحد، فانطلق من السماء بغتة دويّ كصوت ريح عاصفة، فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه. وظهّرت لهم السنة كأنها من نار قد انقسمت، فوقف على كل منهم لسان، فامتلاوا جميعًا من الروح القدس وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغتهم، على ما منحهم الروح القدس أن ينطقوا.

مريم نموذج صلاتنا

حقًا إنّه لواجب وعدل أن نمجّدك ونشكرك دائمًا وفي كل مكان، أيها الأب القدوس، الإله الأزلي الكلي القدرة، بيسوع المسيح ربنا.

ومن كثرة محبتك، أعطيت الكنيسة نموذجًا للعبادة الصحيحة في شخص مريم العذراء.

إنّها العذراء المصغية التي استقبلت كلامك، وتأمّلته صامتة في قلبها.

إنّها العذراء المصلية التي أشادت برحمتك في تسبحتها، وشفعت لأجل العريسين في قانا الجليل، وانضمت إلى صلاة الرسل الإجماعية.

إنّها العذراء التي أنجبت، إذ حملت ابنك بقدرّة الروح القدس، وأصبحت أمام الصليب أمًّا لشعب العهد الجديد.

إنّها عذراء التقدمة، إذ قدمت لك في الهيكل يسوع وليدها البكر، ورضيت أن تضحّي بابنها عند أقدام شجرة الحياة.

إنّها العذراء اليقظة التي سهرت بانتظار قيامة المسيح، وصَلَّت بانتظار حلول الروح القدس.

فمع أجواق الملائكة السماوية، المغبوطين، نرتل لك: "قدوس، قدّوس، قدّوس، قدّوس..."

نصوص

■ أنظر إلى النجمة ونادِ مريم!

"واسم العذراء مريم..." (لوقا ٢٧/١)

إنّ تسمية "نجمة البحر" تليق تمامًا بالأُم التي بقيت عذراء، وتشبيهاً بالنجم أو بالكوكب تشبيه صحيح جدًّا، لأنّها تبعث بأشعتها مثله دون أن تتلف نفسها، وهذا هو شأن العذراء التي تلد طفلها دون جرح داخلي. وكما أنّ الأشعة لا تقلل من لمعان النجم، كذلك لا يقلل الابن الوليد من طهارة العذراء. نعم، إنّها النجمة النبيلة من سلالة يعقوب، وأشعتها تنير الكون بأسره. روعتها تتألق على القمم، وفي الوقت ذاته تسير أعماق الوديان. حرارتها تنسكب على كافة أنحاء الأرض، وتدفي النفوس أكثر من الأجساد، وتنضج الفضائل وتحرق العيوب.

أجل، إنّها النجم الساطع الرائع الذي لا بدّ منه، والذي يرتفع فوق المحيط الشاسع في بريق استحقاقاته وإشعاع مثله.

أيها الإنسان الذي يشعر بانجرافه في تيار هذا العالم، بين العواصف والزوابع، بدلاً من أن يمشي على الأرض اليابسة! لا تُبعد نظرك عن لمعان هذا النجم إذا كنت تريد تجنّب الغرق في العاصفة.

عندما تهب رياح التجارب، وتنقاد أنت نحو صخور الشدائد، أنظر إلى النجمة ونادِ مريم!

إذا كانت تتقاذفك أمواج الكبرياء والطموح والتحقير والحسد، أنظر إلى النجمة ونادِ مريم!

إذا اهتزت نفسك من الغضب أو البخل أو سحر الجنس، أنظر نحو مريم.

إذا كنت معذبًا من فداحة جرائمك وخجلًا من تلوّث ضميرك ومذعورًا من هول المحاكمة فأصبحت على شفير الكآبة واليأس، وجّه أفكارك نحو مريم!

في المخاطر، في القلق، في الأزمات، فكّر في مريم وتضرّع إليها!

لا تدع اسمها يترك شفّيتك وقلبك.

ولكي تحصل على الرضا في صلواتها، لا تهمل الاقتداء بحياتها.

إذا تبعثها لن تتحرف، وإذا تضرعت إليها لن تياس، وإذا فكرت فيها لن تضل الطريق.

إذا أمسكتك فلن تهوي، وإذا حمتك فلن تخاف، وإذا قادتك فلن تنعب. وبحسن التفاتها، ستصل (إلى المرفأ).

وهكذا تختبر بنفسك ما قيل في الكتب بصدق: "واسم العذراء مريم..." (لوقا ٢٧/١).

(من أقوال القديس برنار دو كليرفو (St. Bernard de Clairvaux) (١٠٩٠-١١٥٣)،

المسمّى "بالملفان المريمي، أهم أتقياء السيدة مريم")

من أقوال سيرج بوني Serge Bonnet

كل سبحة تتلى هي دولا ب آخر يجعل العالم يتقدّم نحو الله.



Vierge en ivoire XIV^{ème} siècle
Collégiale Villeneuve-lès-Avignon
Ed. Abbaye d'En Calcat

طلبات سيدتنا مريم

بعد انقضاء ثلاث سنوات على اهتدائه عام ١٩٠٨، وقع الشاعر شارل بيغي Charles Péguy (١٨٧٣-١٩١٤) في حالة من "الضيق النفسي"، ما لبثت أن تفاقمت عندما أصيب أصغر أولاده ببير بداء التيفوئيد في شهر شباط ١٩١٢. فأمضى خمسة عشر يوماً في قلق شديد، إلى أن نذر أن يقوم بالحج إلى "شارتر"، مشياً على الأقدام، في حال شفاء ابنه. وهكذا، في شهر حزيران التالي، قطع مسافة ١٤٤ كيلومتراً خلال ٣ أيام.

وبتاريخ ٢٧ أيلول ١٩١٣، باح إلى صديقه "لوت" Lotte بما يلي: "لقد أنقذتني سيدتنا مريم من اليأس، وهو الخطر الأكبر، وتخلصت منه عندما ألفتُ كتابي "المدخل".

فقد أدرك هذا الشاعر تماماً أنّ الرجاء، الفضيلة الإلهية الثانية، إنّما هو نعمة أساسية نحصل عليها بشفاعه تلك التي "تبتهج إلى أقصى حد"، "وتتألم إلى أقصى حد" في آن واحد.

مريم هي أول مخلوقة تمّ فيها تحقيق التطويبات، وتذليل أشد التناقضات:

هناك أيام يكون فيها الشفعاء والقديسون غير كافين، العاديون منهم والعظماء، فيجب الالتماس ممّن هو أعلى، والاستمرار في الصعود، دائماً إلى الأعلى [...].، إلى أن يأتي وقت لا بدّ فيه من أن نحزم أمرنا، ونتوجّه مباشرة إلى التي هي فوق الجميع.

يجب التحلي بالجرأة، لمرة واحدة، والتوجّه بجسارة:

إلى التي هي في غاية الجمال، لأنها أيضاً في غاية طيبة القلب،

إلى التي تشفع، وهي الوحيدة التي تستطيع أن تتكلم بسلطة الأم،

إلى التي هي في غاية الطهارة، لأنها أيضاً في غاية اللطف،

إلى التي هي في غاية النبل، لأنها أيضاً في غاية التهذيب [...].،

إلى التي هي في غاية الغنى، لأنها أيضاً في غاية الفقر،

إلى التي هي في غاية السموّ، لأنها أيضاً في غاية التواضع،

إلى التي هي في غاية العظمة، لأنها أيضاً في غاية الصغر والبساطة،

إلى الأمّ الشابة التي هي في غاية الشباب، لأنها أيضاً في غاية الأمومة،

إلى التي هي في غاية الاستقامة، لأنها أيضاً في غاية الانحناء،

إلى التي هي في غاية الابتهاج، لأنها أيضاً في غاية التألم، إذ تألمت سبعين مرة سبع مرات.

إلى التي هي مؤثرة إلى أقصى حدّ، لأنها أيضاً تأثرت إلى أقصى حدّ،

إلى التي هي كل عظمة وكل إيمان لأنها أيضاً كل محبة،

إلى التي هي كل إيمان وكل محبة لأنها أيضاً كل "رجاء".

إنّ القديسين، لحسن الحظ، لا يغارون بعضهم من بعض، إذ لو كان ذلك، لطفح الكيل. وجميعهم، لحسن الحظ أيضاً، لا يغارون من القديسة العذراء، وهذا ما يسمّى شركة القديسين.

(مدخل سر الفضيلة الثانية، صفحة ٥٦٦ - ٥٦٩ Le Porche du mystère de la deuxième vertue)

* * *

الفصل الثامن

سرُّ فرحٍ مدهش

"أفرحي، أيتها الممتلئة نعمة" (لوقا ٢٨/١)

"سينفذ سيفٌ في نفسك" (لوقا ٣٥/٢)

سيتيح لنا هذا الفصل الأخير أن نتأمل في اللقاء المذهل الذي وقع في نفس مريم بين الفرح والحزن، فقد اهتزت بقوة بأسرار يسوع المفرحة، كما أنها ساهمت بقدر كبير في أسراره المؤلمة، فكانت سيّدة الأفرح كلها مثلما كانت سيّدة الآلام السبعة. ومن شأن هذا التعايش الذي حصل في قلبها بين الحزن والفرح، أن يساعدنا على أن نفهم بصورة أفضل ما يتعيّن علينا أن نعيشه نحن بالذات.

يطلب منا الله أن نفرح دائماً وأن نحمده على كل حال (1 تسالونيقي ١٨/٥)، علماً بأنّ الحزن لا يشكل بالضرورة خطيئة. فقد عرف يسوع الحزن في بستان الزيتون (متى ٣٨/٢٦).

أولاً: سيّدة الأفرح

تعظّم الربّ نفسي، وتهتزّ روحي فرحاً بذلك الذي خلصني وعطف على ضعفتي (ترجمة ماري بودوان كروا).

احتفل أجدادنا بأفرح مريم قبل أن يحتفلوا بالأمها بمدة طويلة. فقد لاحظوا عيداً أسموه "عيد التهلل"، وهو لا يزال يُذكر في تقاويم بعض الرهبانيات. وهناك كنائس قديمة تحمل أسماء مثل سيّدة الفرح أو سيّدة كل الأفرح أو سيّدة الابتهاج، كما يوجد أيضاً دير يحمل اسم "دير فرح السيّدة". وجميع هذه التسميات تبرز البهجة التي تقطن قلب مريم، وأيضاً الأفرح التي تجلبها إلى أبنائها إذا ما حدوا ببساطة حدو القديس يوحنا، الذي "أخذها إلى بيته من تلك الساعة" (يوحنا ١٩/٢٧).

مريم هي إذاً سبب فرحنا، وهي أيضاً مثال له.

- إنها سبب أفراننا من ناحيتين، فابتسامتها كأمّ تضيء على حياتها كلها نورها اللطيف، على الأقل إذا خصّصنا الوقت الكافي للتفكير بهذا الأمر. ولكن، سبق أن أشرنا إلى أنّها تتعاون مع الروح القدس، لتساعدنا على استقبال المسيح يسوع، وعلى تركه يسود في قلوبنا يوماً بعد يوم. ومريم لم تهبط يسوع ليلة الميلاد فقط، بل هي تحضر في كل إفخارستيا وفي كل صلاة قلبية، فتسعى إلى إنماء حياة ابنها في صميم كياننا. ولم يقتصر تدخلها لدى ابنها على قانا الجليل كي لا ينقص الخمر في العرس، بل إنها لا تفتأ تبتهل إليه ليسكب خمرة عرس الحمل على كافة أفراد كنيسته وينشر فيهم ثمار الروح القدس التي يحتل فيها السلام والفرح مكان الصدارة (غلاطية ٥/٢٢).

- بيد أننا نستطيع أيضاً أن نجد في مريم مثلاً للفرح المسيحيّ الصحيح الذي يتلاءم مع كل مصاعب الحياة، وحتى مع أحزانها.

* كانت مريم دائماً سعيدة جداً، قبل البشارة بزمان طويل، فقد كانت تقرأ في الكتاب المقدس، وهي بنت إسرائيل الصغيرة، المقاطع التي أعلن فيها الربّ حبه لشعبه. وكانت تعرف عن ظهر قلب "نشيد الأناشيد" الذي كان يرتل مساءً كل سبت في المجمع، وتبتهج لسماعها الربّ يقول لها: "ما أجملك يا حبيبتي، ما أجملك!".

وكما ذكرنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب، لم تكن مريم تتباهى بالعطايا التي تلقتها من الله، ولم تستخدمها إلا لرفع آيات الشكر والمحبة. لقد كانت مريم مشبعة إعجابًا و عرفانًا للرب، فكيف كان لها أن تلتفت إلى نفسها؟

وكان من دواعي فرح مريم أيضًا ما كان لديها من استعداد لأن تخدم الآخرين وتُرضي كل الذين قد يحتاجون إليها. وما يدل على استعداداتها الطيبة المألوفة، هو إسراعها إلى زيارة نسيبتها أليصابات، بمجرد علمها بأنها حامل. وبإمكاننا أن نتصوّر فرح مريم وهي تلتفت إلى سكان قريتها كافة، وتحرص على محادثتهم، أو الابتسام لهم، أو تأدية أية خدمة تناسبهم.

لقد منح الروح القدس مريم قلبًا يفيض رحمة، لإغاثة كل من تلمحه في البؤس. وعندما أعلن يسوع: "طوبى للرحماء" (متى ٧/٥)، لا بد أنه فكّر في الفرح الذي شاهده على وجه أمّه طوال سنوات... ولم تنظر مريم قط إلى أحد باحتقار، وكانت بالطبع تتألم لملاحظة تفكير سكان الناصرة السطحي... وتألمت أيضًا، في وقت لاحق، عندما لمست تشبثهم بعدم الاعتراف بأن يسوع هو المسيح، في حين استقبلته الجموع في النواحي الأخرى بحماسة. ورغم ذلك استمرت مريم في حبها لهذا الشعب، وفي حمله في قلبها وفي صلواتها، حتى إنها كانت سعيدة للقيام بذلك، وسعيدة لمساهمتها في رحمة الله ذاتها تجاه بني البشر.

*** وكانت مريم سعيدة أيضًا بسبب يوسف، خطيبها الذي كان فريدًا ومتميزًا! إذ تمكنت من أن تشركه بسرعة في مشاريعها كلها، بما في ذلك رغبتها العميقة التي نشأت في قلبها منذ أمد طويل، والتي جعلتها تتركس نفسها كليًا للرب. فشاطرها يوسف رأبها كليًا، مدرّكًا أنّ موقفها هذا لا ينبع عن خوف من الزواج، أو نقص في الحنان، أو رفض للأمومة، بل إنه كان ينبع من رغبتها المطلقة في بلوغ القداسة والاستسلام الكلي إلى الله! نعم، إنّ أعلى أمانى يوسف كانت مساعدة مريم على تحقيق مشروعها والمساهمة فيه. يا له من رجل خارق! يا له من هدية رائعة قدّمها الرب إلى مريم!**

***وغني عن البيان أنّ فرح مريم، بعد البشارة، أصبح أكثر عمقًا وذا طابع خاص. لقد كافأها الله بطريقة غير متوقعة لأنها نذرت البتولية، فطلب إليها أن تحمل في بطنها جسد المسيح ذاته لمدة تسعة أشهر. هل كانت تعلم آنذاك بصورة واضحة أنّ وليدها سيكون ابن الله بالمعنى التام للكلمة؟ لا يوجد ما يؤكد ذلك. ولكن من الأرجح أنّ الروح القدس أثارها، فخطت خطيئًا حثيثة نحو إدراك السرّ الذي كان يسكنها.**

يمكننا أيضًا أن نتصوّر الفرح الذي عاشته مريم، عندما ولدت طفلها، وفرحها عندما استمعت إلى الرعاة ينقلون إليها الرسالة التي تلقوها من الملائكة في وسط الليل. وطيلة حياتها، كانت تدوي في قلبها الترتيلة التي ننشدها كل يوم أحد في أثناء القداس: "المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام، للذين يحبهم". وتعبّر هذه الترتيلة أفضل تعبير عن دعوة ابنها يسوع: تسبيح الله وتمجيده، وطلب السلام للعالم.

لنتخيّل فرح مريم العظيم عندما كانت ترضع طفلها، وتشاهد أولى ابتساماته، وتسمع أولى تمتماته، أو كلمة "ماما" أو "بابا" يقولها لأول مرة وتراقب أولى خطواته، وتخيّل له ثيابًا جديدة كلما نما: هذه الأفراح البشرية كانت تبعث في قلب مريم نشيدها من جديد.

بعد ذلك، كان فرح مريم في عرس قانا، حيث ابتهجت لرؤيتها يسوع ينجز أولى معجزاته، ولمشاهدتها تلاميذه يبدون دهشتهم، ولسماعها إياهم يقولون عنه: "من هو ليعطيه الله هذه المقدره"؟

وبعدها، عادت مريم إلى الناصرة، وحيدة صامتة. لكنّها لم تكن تجهل أن يسوع يثير الحماسة في كل المدن والقرى التي يمرّ فيها. فكان الناس ينقلون إليها التعليم الذي كان يلقيه في تلك الأماكن، فتكتشف فيه دون صعوبة أفكار ابنها، وكل ما كان يقوله في الأمسيات الطويلة التي كان يقضيها معها ومع يوسف، في منزلهم الصغير في الناصرة. وكانت أيضًا تتصوّر بأية لهجة كان يسوع يعلن، في مختلف الأمكنة، التطويبات التي طالما عاشها هو بالذات لسنين كثيرة قبل أن يعلمها: طوبى لفقراء النفوس! طوبى للودعاء! طوبى للمحزونين! طوبى للجياع والعطاش إلى البر! طوبى للرحماء! طوبى لأطهار القلوب! طوبى للساعين إلى السلام! طوبى للمضطهدين على البر!

ثانياً: سيّدة الآلام

"هناك عند صليب يسوع، وقفت أمّه" (يوحنا ١٩/٢٥)

إنّ الأفراح الكثيرة التي عرفتها مريم تنسينا الصليبان التي حملتها طيلة حياتها، فسيّدة الأفراح هي أيضاً سيّدة الآلام.

عندما تحدثنا في مقطع سابق عن إيمان مريم، أشرنا إلى المحن الهائلة التي واجهتها وعاشتها بإيمان لا يضاهي دون أن تتخلّى لحظة واحدة عن الفرح الذي أرساه الله في أعماق قلبها الطاهر. وكان هذا الفرح من أروع ثمار الروح القدس، وقد مكّنها من البقاء واقفة على جبل الجلجلة بالقرب من صليب ابنها.

ونحن بدورنا مدعوون إلى أن نعيش هذه المفارقة الغريبة. إنّ الفرح الذي يعتبره القديس بولس واجباً علينا (تسالونيقي الأولى ١٦/٥ وفيلبي ٤/٤) يتلاءم مع جميع محن الحياة. إنه فرح "يفوق كل إدراك" (فيلبي ٤/٧) وربما كان من الأفضل أن يسمّى "سلاماً". فالسلام وحده يكون ممكناً عند الإنسان الغارق في مصائب مؤلمة.

وقد اختبر جميع القديسين مثل ذلك الأمر. فالأخت تيريزا الطفل يسوع، بمجرد بلوغها سن السادسة عشرة، وفي الوقت الذي احتُجز فيه والدها في مستشفى للمجانين في مدينة "كان" Caen، كتبت إلى شقيقتها سيلين قائلة: "لنتألم بسلام! أعتزف أنّ كلمة "سلام" تنطوي على شيء من المبالغة، بيد أنني فكرت في الأمر ووجدت سرّ المعاناة بسلام ... فمن يقول "سلام" لا يقول "فرح"، أو على الأقل لا يعني بذلك الفرح المحسوس. ولكي نكابد الألم بسلام، يكفيننا أن نريد ما يريده يسوع" (٤ نيسان ١٨٨٩). وبعد ثلاثة أسابيع، كتبت ثانية إلى شقيقتها تقول: "لنتألم بمرارة، دون شجاعة! فيسوع تعذب بحزن! ... وها نحن نريد أن نعاني الألم بسخاء وبعظمة! أخطاه يا له من وهم!". (٢٦ نيسان ١٨٨٩).

بعبارة أخرى، يساهم القديسون في سرّ الاحتضار الإلهي، كما قال جورج برنانوس. في جستمانية، كان يسوع يعلم أنه الابن الحبيب للأب ويناديه: "أباً"، يا أبتاه! (مرقس ١٤/٣٦) وكان يعلم أيضاً أنه يسكب دمه لأجل خلاص العالم وغفران الخطايا (متى ٢٦/٢٨)، إلا أنّ ذلك لم يخفف من وطأة عذابه. وقد علّقت القديسة تيريزا على ذلك بقولها: "إنه لسرّ، ولكن أوكد لكم أنني أفهمه نوعاً ما استناداً إلى ما أشعر به أنا بالذات" (٦ تموز ١٨٩٧).

كانت مريم تلتزم جانب الفرح مهما عظمت محنتها، ويكمن سرّ موقفها في الآية التالية: "كانت مريم تحفظ جميع هذه الأمور وتتألمها في قلبها" (لوقا ١٩/٢، ٥٢).

إذا أردنا أن نحذو حذو سيّدتنا مريم وأن نبقي مبتهجين مهما كانت الظروف، فعلينا أن نتقيّد بمنهجها فنتعلم كيف نتألم مطوّلاً وعلى غرارها رسائل المحبة التي يرسلها الله لنا، وأن ندخلها إلى صميم قلوبنا، لننعم بسلام أكثر عمقاً في الشدائد التي من المحتم أن تلازم حياتنا.

لا يوجد فرح مسيحيّ صحيح من دون تلك "العودة إلى القلب"، التي يدعونا إليها أساتذة الحياة الروحية كافة. فبدلاً من أن نعيش، كما نفعل في أغلب الأحيان، على مستوى انطباعاتنا ومشاعرنا، يجب أن نتعلم كيفية الانضمام إلى الربّ حيث ينتظرنا ويعرض علينا أفراده، أي في أعماق قلوبنا.

"يا من أنت في بيتك في أعماق قلبي، دعني أنعم بفرحك في أعماق قلبي".

ولا يوجد أيضاً فرح مسيحيّ من دون قراءة دؤوبة للكتاب المقدس، إذ فيه يعبر الله عن حبه لنا باستمرار: "إذا أحببني أحد، حفظ كلامي فأحبّه أبي ونجّيه إليه فنجعل عنده مقاماً" (يوحنا ١٤/٢٢) ؛ "قلت لكم هذه الأشياء ليكون بكم فرح فيكون فرحكم تاماً" (يوحنا ١٥/١١).

من هنا تبرز أهمية الصلاة القلبية وقراءة كلام الله في حياتنا الزوجية، إذا ما أردنا أن نكون شهوداً للربّ في هذا العالم، وأن نشيع بعضاً من فرحه.

أيتها السيّدة، يا ملكة الأسر، ساعدنا على أن نعيش أكثر فأكثر بشرى الإنجيل في نور ابتسامتك، يا أمنا سيّدة الأفراح كلها!

* للحوار في الفرقة:

- ١- هل نعرف، في محيطنا أو في عائلتنا، أشخاصًا يشعّون الفرح حقًا؟ ما هو تأثير هذا الفرح على حياتنا؟
- ٢- لنحاول أن نتشارك خبرتنا في مجال تأثير الصلاة القلبية وقراءة كلام الله على فرحنا العميق.
- ٣- هل أدّى تأملنا نشيدَ مريم إلى حصول تغيير في حياتنا هذه السنة؟ هل اكتشفنا أنّ صلاة مريم، في الوقت الذي تدعونا فيه بقوة إلى الاختيار الأفضل للفقراء، تلخّص الموقف الأساسي الذي يجب أن نقفه أمام الله؟

* للحوار بين الزوجين:

كيف نحاول أن نكون في وسط همومنا اليوميّة شهودَ الفرح لأولادنا وأقاربنا؟

صلاة لاجتماع الفرقة

(من إنجيل القديس لوقا ٢٢/٢ - ٤٠)

ولما حان يوم ظهورهما، بحسب شريعة موسى، صعد بيسوع أبواه إلى اورشليم ليقرّباه إلى الرب، كما تقتضي شريعة الرب من أن كلّ بكر نكر يُنذر للرب، وليقرّب ما تفرضه شريعة الرب: زوجي يمام أو فرخي حمام. وكان في اورشليم رجلٌ بارٌّ تقيّ اسمه سمعان، ينتظر الفرج لإسرائيل، والروح القدس نازل عليه. وكان الروح القدس قد أوحى إليه أنّه لا يدوق الموت قبل أن يرى مسيح الرب. فأتى الهيكل بوحي من الروح. ولما دخل بالطفل أبواه، ليؤديا عنه ما تفرضه الشريعة، حمله على ذراعيه وبارك الله ثم قال: " ربّ، أطلق الآن عبدك بسلام، وفاقاً لقولك. فقد رأيت عيناى ما أعددتّه من خلاصٍ للشعوب كلها، نوراً لهداية الأمم ومجدًا لشعبك إسرائيل".

وكان أبوه وأمّه يعجبان ممّا يُقال فيه. وباركهما سمعان ثم قال لمريم أمّه: إنّهُ جُعِل لسقوط كثير من الناس، وقيام كثير منهم في إسرائيل وآية ينكرونها - وأنت سينفذ سيفٌ في نفسك - لتتكشف الأفكار عن قلوب كثيرة".

بشارة ثانية إلى مريم

تبدو مقولة سمعان وكأنها بشارة ثانية لمريم، لأنّها تُظهر البُعد التاريخي الواقعي الذي سيلزم ابنها: المخالفة والألم ... وتكشف لها أيضًا أنّه لا بدّ لها من طاعة الإيمان في الألم إلى جانب المخلص المتألم، وأنّ أومنتها له سيلفها الخفاء والألم.

(عن الرسالة البابوية "أم الفادي" ليوحنا بولس الثاني، الفقرة ١٦)

نصوص:

"يا ربّ، أنت تعلم أكثر منّي أنّي أتقدّم في السنّ، وأنّه سيأتي يوم أنتمي فيه إلى فئة "الشيخ". أبعد عني تلك العادة المحتومة التي تجعلني أعتقد أنّ عليّ التكلّم حول كلّ شيء وفي كلّ مناسبة.

خلّصني من التوق إلى ترتيب أمور الآخرين. اجعلني متروياً لا عبوساً، خدوماً لا متسلطاً. ويبدو لي من المؤسف ألاّ أستخدم كل ما أدخره من حكمة، ولكن أنت تعلم، يا ربّ، أنّي أريد الاحتفاظ ببعض الأصدقاء.

امنعني من سرد التفاصيل بدون توقّف، أعطني أجنحةً لأصل إلى الهدف. اختمّ شفّتي على الآمي وعذابي رغم ثقافتها المتواصل ورغم شعوري بمتعة متزايدة في ذكرها مع مرور السنين.

لا أجرؤ على الطلب إليك أن تجعلني أستسيغ قصص الآلام الآخرين، ولكن ساعدني على أن أتحمّل الاستماع إليها بصبر. ولا أجرؤ على مطالبتك بذاكرة أفضل، ولكن امنحني تواضعاً متزايداً، وقلّ من صلفي عندما

تصطدم ذاكرتي بذاكرة الآخرين. علّمني العبرة الرائعة القائلة إنني معرّض للخطأ. احفظني. لا أرغب في نيل قداسة كبيرة، فأُنْ أعيش حياة بعض القديسين أمرٌ صعبٌ للغاية! لكنّ شخصاً مسنّاً متألماً حزيناً هو، بلا ريب، من أهمّ اختراعات الشيطان. اجعلني قادرًا على تمييز المحاسن حيث لا يُتوقع وجودها، وعلى اكتشاف وزنات الأشخاص الذين لم تكن تُلاحظ عندهم. وأعطني النعمة لأقول لهم ذلك"

(هذه الصلاة هي ترجمة فرنسيّة عن الأصل الإنكليزي، وقد نشرت في مجلة "صلاة" (تموز - آب ١٩٨١) وهي من تأليف راهبة مجهولة من القرن السابع عشر، تظهر فيها روح الفكاهة جيّدة. وباستطاعتنا أن نتلوها مهما كان عمرنا، لأننا سنشيخ جميعًا!)

■ ماذا عن يوسف؟

عندما سمع يوسف كلام سمعان، لا شكّ أنه فكّر في يسوع، ولكنه فكّر أيضًا في مريم التي ستصبح أمّ الآلام، فاخترقه سيفٌ هو أيضًا. ومن هو الرجل الذي لا يتألم لعلمه أنّ المرأة التي يحبّها ستتعرّض لاحتضار القلب؟ ألم يفكّر يوسف أيضًا في نفسه أو بالأحرى في مهمّته كحارس وكحام للعائلة المقدّسة؟ لم يتكلم سمعان إلّا مع مريم، فهل استنتج يوسف من ذلك أنه لن يكون موجودًا عندما سيتعذب ابنه وامرأته حتى الموت؟ إنّه يحتاج إلى شجاعة فائقة ليحتمل هذه الفكرة، وإلى إيمان بطولي عظيم ليستسلم إلى مشيئة الله، ذلك لأنّ الإنسان يحتاج لكي يترك من يحبّهم في خطر إلى قدرٍ من الشجاعة والإيمان أكثر ممّا يحتاجه لمرافقتهم ودعمهم.

(هنري كافاريل، خذ مريم امرأتك إلى بيتك، ١٩٨٣)

Henri Caffarel, Prends chez toi Marie, ton épouse, 1983

الملاحق

1. تاريخ صلاة التبشير
2. تاريخ المسبحة الوردية
3. المصاعب أمام الحبل البتولي
4. العذراء مريم في التفكير البروتستانتية

١- تاريخ صلاة التبشير

في القرن السادس، أخذت الليتورجيات اليونانية تقدّم التحية إلى مريم العذراء، مستعملة كلمات رئيس الملائكة جبرائيل والقديسة أليصابات. ثم في نهاية القرن ذاته، أدخل غريغوريوس الكبير صلاة السلام الملائكي في الليتورجيا اللاتينية، وفي القرن السابع تمّ إدراجها أيضاً في ليتورجيا النصارى المستعربين في الأندلس Mozarabe. وأخيراً أصبحت تُستخدم بشكلها البدائيّ إبان القرن الثالث عشر في عموم الصلوات شبه الليتورجية.

وفي ذلك العهد، أخذ الرهبان الفرنسيون يقرعون الأجراس لمرافقة صلواتهم المسائية إلى مريم، كي يتيحوا لبقية المؤمنين مشاركتهم هذه الصلاة. وحوالي العام ١٢٥٠، دشّن بونوا الأريزي Benoit d'Arezzo في ديريه عادة جديدة هي مباشرة الصلاة باللازمة الآتية: توجّه الملاك إلى مريم قائلاً. ثم في القرن الرابع عشر، انتشرت عادة أخرى تقضي بدق الجرس ثلاث مرات متتالية في المساء عند نهاية صلاة النوم، وذلك إكراماً للسيدة العذراء.

وفي قرية دونريمي Donrémy، كانت جان دارك تشعر بالخيبة كلما نسي القندلفت "بيرّان" Perrin أن يقرع الجرس لأجل صلاة التبشير المسائية، فوعده، لقاء تعهّده بعدم إهمال قرع الجرس، أن تخصص له بعض الربطات من صوف خرافها، إذ كان يمارس حرفة صنع الجوخ.

وبعد ذلك، أضيفت تحية الصباح إلى صلاة التبشير المسائية. وفي عام ١٣٩٩ دعا رئيس أساقفة "كانتربوري" مطران لندن إلى دقّ الجرس صباحاً ومساءً.

أمّا صلاة الظهر، فإنّها تعود إلى تاريخ لاحق، وكان الجرس لا يقرع ظهراً في نهاية القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر إلا في أيام الجمعة إكراماً لآلام المسيح. بيد أنّ صلاة الظهر أصبحت شيئاً فشيئاً صلاةً يومية وأخذت تتوجّه أيضاً إلى مريم. وقد أمر لويس الحادي عشر ملك فرنسا في عام ١٤٧٢ بتلاوة صلاة الظهر، ليسود السلام في مملكته. وسمّيت آنذاك "تحية مريم لأجل السلام".

وفي القرن السادس عشر، دأب المصلّون على الفصل بين السلام الملائكي الثلاثي بثلاث آيات مع الجواب المقابل لكل منها، وهي ذاتها تقريباً التي تتلى اليوم.

وفي عام ١٧٤٢، أمر البابا بونوا الرابع عشر بالاستعاضة عن صلاة التبشير بصلاة Regina Coeli ، في أثناء الفترة الواقعة بين عيد الفصح وعيد الثالوث. هذا وإنّ البابا ليون الثالث عشر المعروف بتقواه نحو مريم هو الذي شجّع العديد من المسيحيين على ممارسة صلاة التبشير.

أما البابا يوحنا بولس الثاني، فقد اعتاد أن يتلو هذه الصلاة ظهر كل يوم أحد مع أهل روما والحجاج المجتمعين في ساحة القديس بطرس. وهي عادة حافظ عليها في أثناء تنقلاته في مختلف الأقطار التي سافر إليها.

٢- تاريخ المسبحة الوردية

في القرن السابع، ظهرت أنتيفونا (لازمة) ليتورجية تقال في الأحد الرابع لزمّن المجيء، وضُمّت في صلاة واحدة تحية الملاك: "السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك" إلى تحية أليصابات: "مباركة أنت

في النساء ومباركة ثمرة بطنك". فتمت بذلك ولادة صلاة السلام الملائكي Ave Maria التي ما لبثت أن انتشرت بسرعة في صفوف الرهبان والعلمانيين.

ومن جهة أخرى، ومنذ نشأة الكنيسة، كانت تلاوة كتاب المزامير تعتبر ركنًا من أركان الصلاة المسيحية. إلا أن الإخوة المساعدين Convers الأميين في القرون الوسطى دأبوا، للتعويض عن عجزهم عن قراءة المزامير المائة والخمسين الواردة في التوراة، على تلاوة مائة وخمسين صلاة ربانية، كانوا يحصون عددها باستخدامهم حبالاً قصيرة ذات عقد، ومصنوعة لهذه الغاية.

ثم استعويض في القرن الثاني عشر، كلياً أو جزئياً، عن تلاوة تلك الصلوات الربانية بتلاوة السلام الملائكي، والأمر الذي يسر ذلك هو ظهور ترجمة لاتينية لرتبة المدائح المخصصة للعدراء مريم. ونمّ تقسيم السلامات الملائكية، وعددها ١٥٠، إلى ثلاث مجموعات تبلغ كل مجموعة ٥٠ سلاماً، على غرار التقسيم المطبق منذ القديم على المزامير الموزعة على ثلاثة كتب.

وفي القرن الثالث عشر، أُطلقت على تلك المجموعات تسمية "ورديات"، في إشارة إلى الورد التي كانت تُزَيّن بها تماثيل مريم على شكل قبّعات توضع على رأسها (علمًا بان كلمة مسبحة أو سبحة، في اللغة الفرنسية، مشتقة من كلمة تفيد "قبعة" للدلالة على قبّعات الورد التي كانت تستعمل كزينة على تماثيل العذراء)، وهي طريقة جد بسيطة لتكريم مريم التي كانت تُسمى "الوردة السرية".

وبعد فترة قصيرة، أصبحت كل من كلمتي "سبحة" و "وردية" تُستعمل أيضاً للإشارة إلى إكليل الخرزات الذي كان يستخدم لإحصاء عدد السلامات الملائكية (٥٠) في كل مجموعة من "كتاب مزامير سيدتنا مريم".

ثم اقترح الرهبان السيسترسيون Cisterciens، رغبة منهم في مساعدة المسيحيين على التأمل في الإنجيل في أثناء تلاوة السبحة، أن تُضاف إليها فقرات صغيرة مثل:

ومباركة ثمرة بطنك يسوع ... الذي سجد له الملوك المجوس ... الذي قام من الموت فترأى لمريم المجدلية ... الذي غسل أقدام تلاميذه.

وفي مستهل القرن الخامس عشر، عمد دومينيك البروسي Dominique de Prusse وهو من الرهبان الشرتريين Chartreux، إلى تقسيم حياة يسوع إلى خمسين فصلاً، ألف لأجلها باللغة اللاتينية أو الألمانية عدّة مجموعات من خمسين فقرة. وألف أيضاً حوالي عام ١٤٥٠ مجموعات من ١٥٠ فقرة تتطابق بالترتيب مع أناجيل طفولة يسوع وحياته التبشيرية وآلامه.

وبعد بضع سنوات، قام الأخ آلان دي لا روش Alain de la Roche (١٤٢٨-١٤٧٥)، وهو دومينيكي من مقاطعة بريتانيا الفرنسية، بترتيب المسبحة على أساس خمسة عشر قسمًا، يشتمل كل منها على عشر خرزات، وكل قسم مفصول عن الآخر بصلاة ربانية. وكان تخصيص الأقسام الخمسة عشر على النحو الآتي: خمسة على شرف المسيح المتجسد، وخمسة على شرف المسيح المتألم، وخمسة على شرف المسيح الممجد، ثم أسس الدومينيكي المذكور عام ١٤٧٠ في بلدة "دويي" Douai أخوية (Confrérie) تمّ أخذها كنموذج لأولى أخويات الوردية التي نشأت في مدينة كولونيا الألمانية بتاريخ ٨ أيلول ١٤٧٥.

وبسرعة انتشرت الأخويات في أنحاء أوروبا كافة، واتاحت للآلاف من المسيحيين أن يتأملوا في الإنجيل في سياق تلاوتهم "كتاب مزامير السيدة العذراء". وقد نسب آلان دي لا روش ابتكار الوردية إلى القديس دومينيك، مستنداً إلى التشابه بين اسم مؤسس رهبانية الدومينيكيين واسم الراهب دومينيك البروسي.

وفي عام ١٤٨٣، ظهر في بلدة "أولم" Ulm كتاب تمّ توزيعه على أعضاء أخوية الوردية، وهو يتضمّن رسمة لكل سرّ: ٥ فرحات مريمية أثناء طفولة يسوع، و ٥ إراقات دماء في أثناء آلامه، و ٥ فرحات مريمية بعد الفصح. هذه هي أسرارنا الحالية، باستثناء الاثنين الأخيرين: رقاد مريم ويوم الدينونة.

أمّا القسم الثاني من السلام الملائكي: "يا قديسة مريم، يا والدة الله، صلّي لأجلنا نحن الخطأة ...". وهي أنتيفونا أو لازمة من العصور الوسطى - فقد أضافه في القرن السادس عشر البابا الدومينيكاني بيوس الخامس، الذي اهتم بالوردية وحدّد عيدها الليتورجي في أول يوم أحد من شهر تشرين الأول ليحمد الله على

الانتصار البحري الذي أحرزه ضد الأتراك العثمانيين في عام ١٥٧١، علمًا بأنّه هو الذي استعاض عن السرّين الأخيرين "المجيدين" المُشار إليهما سابقًا بالسرّين اللذين نتأمل فيهما اليوم:

أسرار الفرّح	أسرار الألم	أسرار المجد	أسرار النور *
البشارة	النزاع أو الاحتضار	القيامة	العماد في الأردن
الزيارة	الجد	الصعود	عرس قانا
الميلاد	التكليل بالشوك	العنصرة	إعلان ملكوت الله
تقدمة يسوع	حمل الصليب	رقاد العذراء أو انتقالها	التجلي
يسوع في الهيكل	موت يسوع	تتويج مريم	تأسيس الإفخارستيا

* قام البابا يوحنا بولس الثاني المعروف بتعلّقه بتلاوة المسبحة الوردية بإضافة أسرار النور في سنة 2004 التي كرّسها للوردية المقدّسة.

وفي فترة أحدث، نشر لاون الثالث عشر اثنتي عشرة رسالة بابوية حول الوردية، وكان يوحنا الثالث والعشرون يتلوها كل يوم. كما أنّ البابا بولس السادس خصّص لها بحثًا طويلًا في إرشاده المُعَنون Marialis Cultus "العبادة المريمية"، والمؤرخ في ٢ شباط ١٩٧٤.

الوردية هي الكتاب المقدّس للفقراء. إنها تتّسم بطابع توراتي وإنجيلي شديد، إلى حد أنّ القسّ "نيفيل وارد" Neville Ward عمّمها بين أفراد رعيته ذات العقيدة "الميتودية" (méthodiste) قبيل عام ١٩٧٠، مما دفعه بعد النجاح الذي لاقته إلى أن يؤلّف كتابًا عن الوردية، تمّت ترجمته اليوم إلى عدة لغات. (جرى تحرير هذه اللوحة التاريخية بالتعاون مع الأخ إيلي باسكال إيبينو Elie-Pascal Epinoux مدير مجلة الوردية).

٣- المصاعب أمام الحبل البتولي

من الطبيعي أن يصعب على المسيحيين التسليم ببعض الجوانب "المحيّرة" من بشرى الإنجيل. ولا نستطيع أن نوكّد بطيبة خاطر وجود بعض الحقائق التي يبدو أنها تتنافى الحسّ السليم، مثل حقيقة المسيح القائم من الأموات، واقع وجوده تحت أعراض الخبز والخمر، حقيقة إبليس، إلخ ...

لا يقبل المسيحيون بهذه الحقائق إلاّ بالاعتماد على كلام الله، وعلى تفسيره الرسمي من قبل الكنيسة التي تطبّق سلطتها التعليمية. وهي لا تفعل ذلك إلاّ نادرًا عندما تطلب منّا أن نؤمن "بحقيقة عقائدية".

وقد أشرنا في مقطع سابق إلى أنّ مبدأ الحبل البتولي بيسوع في بطن مريم العذراء، الذي تعرّض للطعن منذ نشوء الكنيسة، أصبح بسرعة عقيدة أكيدة رسمية في مختلف المناسبات التي جاهرت فيها الكنيسة. ونرى هنا أنّه لا بأس من دراسة ردّ الكنيسة على المنازعات التي أثّرت في الأمس واليوم حول هذا الموضوع.

أ - المنازعات الأولى:

ظهر عدد لا يستهان به من المواقف المعارضة في القرون الثلاثة الأولى من الكنيسة. فقد رأى اليهود والوثنيون أنّ تلك العقيدة تمثّل صيغة جديدة للأساطير الوثنية التي تتضمّن روايات عن آلهة يعملون على إخصاب النساء ليلدن أبطالاً إلهيين.

وظهرت المعارضة أيضًا في بعض الأوساط المسيحية. فعلى سبيل المثال، كان الهراطقة "الدوسيتيون" Docètes يستندون إلى الروايات الإنجيلية حول الحبل البتولي، ليقولوا إنه لم يكن ليسوع جسد بشريّ مثل

جسدنا، وإتته تظاهر فقط بأنّه يملك جسداً. والبرهان على ذلك، على حدّ قولهم، هو كونه لم يولد فعلاً من جسم امرأة، بل اكتفى بالمرور عبر جسد مريم دون أن يتلقّى أيّ شيء منها.

ومنذ نشوء الكنيسة، كانت الروايات الإنجيليّة تتصف بصعوبة الفهم، فكانت تُستخدَم تارة للدلالة على الطابع الساخر الموجود في الإيمان المسيحيّ، وتُستغل تارة أخرى لإنكار "حقيقة" التجسد.

وكان من السهل على آباء الكنيسة أن يتخلّصوا بلباقة من تلك الحقيقة المُزعجة بلجوئهم إلى تفسير "رمزيّ" محض. لكنّهم لم يفعلوا ذلك، بل دأبوا على التأكيد - ضد الدوسيتيين - أنّه كان للمسيح جسداً مماثل لجسدنا. وفي الوقت ذاته، أكدوا وبنفس القوة، حقيقة الحبل البتولي، وفسّروه قائلين إنّ يسوع كان منذ الأزل الابن الأبديّ للآب، وهو "الأجلنا ولأجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنّس".

وقد هدأت المنازعة إلى حدّ ما لمدة خمسة عشر قرناً وتيف، على الأقل في التجمعات المسيحيّة، غير أنّها تجددت اليوم بشكل فادح.

ب - المنازعات الحالية:

■ ثلاث مجموعات من الاعتراضات:

تخضع اليوم عقيدة الحبل البتولي لهجوم مرّكز من ثلاثة أوجه من الاعتراضات: تفسيرية، ولاهوتية، وثقافية.

* الحجة التفسيرية: الطراز الأدبي لأنجيل طفولة يسوع:

يركّز المعارضون على الطابع الهامشي لهذه العقيدة، فيشيرون إلى أنّ أقدم "المجاهرات بالإيمان" للعهد الجديد لا تأتي على ذكر الحبل البتولي (١ قورنثس ١٥/٣-٥). ويضيفون أنّ بولس ويوحنا لم يتكلّموا عنه، وأنّه غير موجود إلّا في الروايات التي أوردها متى ولوقا عن طفولة يسوع، والتي هي نصوص ذات طراز أدبيّ خاص يترك مكاناً واسعاً لعنصر الدهشة (مثلاً نجم الملوك المجوس). وعليه ألا يُمكن اعتبار الحبل البتولي كجزء من أسطورة "الأم العذراء"؟ فربما استخدمت الجماعات المسيحيّة الأولى هذا الرمز لتعبّر عن إيمانها بألوهية المسيح.

* الحجة اللاهوتية: لقد شاطرنا المسيح كلياً وضعنا البشري:

بما أنّ المسيح اضطلع كلياً بوضعنا البشري، ألا يُستنتج من ذلك أنّ الحبل به تمّ في أعقاب اتصال جنسي، شأنه شأن جميع الكائنات البشرية؟

* الحجة الثقافية: نظرة مختلفة إلى الأمور الجنسيّة:

ألا يمكن أن يُعزى التفسير الحرفيّ الذي أعطي، خلال قرون، للروايات الإنجيليّة المتعلقة بالحبل بيسوع، إلى إحتقار المسيحيين للأمور الجنسيّة؟ لا بدّ وأنّهم ظنوا أنّه لا يجوز أن يكون يسوع ابن الله إذا كانت أمّه حبلت به إثر اتصال جنسيّ، إذ كانوا يعتبرون هذا الاتصال كتدنيس أو على الأقل كإرضاء للضعف البشري.

أمّا الآن، يقول هؤلاء المعارضون، وقد تخلّص الفكر المسيحيّ من المحرّمات القديمة، فباستطاعته تأويل الإنجيل تأويلاً صحيحاً، فيُصبح بالإمكان أخيراً فهم بتولية مريم على أنّها لا تتعلق مطلقاً بالبيولوجيا. لقد كانت بتولية قلبية وحقيقة روحانيّة بحتة لا تتعارض مع حياة جنسيّة كاملة الممارسة. فإذا أردنا للشباب أن يعودوا إلى طريق التعبد لمريم العذراء فهذه هي البتولية التي يجب تقديمها لهم، دون أيّة بتولية أخرى.

أمّا نحن، فلا يتعذر علينا الردّ على تلك الاعتراضات المعاصرة المختلفة.

■ الردّ على الاعتراضات:

* **الحجة التفسيرية:** إذا نظرنا عن كثب إلى أناجيل طفولة يسوع، لا بدّ أن نلاحظ أنّ التأكيد على مبدأ الحبل البتولي كما هو وارد في إنجيلي متى ولوقا، ليس تأكيداً متأخراً وثانويّاً، ولكنّه يترسّخ في تقاليد قديمة جدّاً كانت سائدة عند أولى الجماعات المسيحية. إنّ الروايتين الواردتين في الإنجيلين المذكورين تختلف كثيراً الواحدة عن الأخرى، مما يشكّل مؤشراً سليماً على أنّ كلاً من الإنجيليين يتبع تقاليد بعيدة جدّاً عن تقاليد الآخر.

بيد أنّ الحجّة التي تبدو لنا الأقوى هي الآتية: إنّ الاهتمام الرئيسيّ لدى الإنجيليين متى ولوقا هو إعلامنا أنّ يسوع هو ابن داود. وكيف؟ عن طريق يوسف أبيه. وهذا هو السبب الذي جعل كليهما يفضّلان لنا سلالة المسيح. لكنهما في الوقت الذي قدّمنا فيه يسوع على أنه ابن داود من خلال يوسف، أكّدا صراحة أنّ لا علاقة ليوسف إطلاقاً بولادة يسوع. فلا بدّ أنّ هذا التأكيد من طرفهما كان راسخاً تماماً في التقاليد الأولى، حتى أقدماً على نقله إلينا، في حين بدا وكأنّه يناقض هدفهما الأساسيّ.

وما يمكن ملاحظته أيضاً هو غياب أيّ شرح تقنيّ "لكيفية" هذا الحبل البتوليّ، ووجود فرق أساسي بين الروايات الإنجيلية وسائر الأساطير الوثنية التي تشير إلى نساء أصبحن حوامل بواسطة تدخل أحد الآلهة. وفي الإنجيل، ليس الأب - أي عنصر مذكّر - هو الذي أخصب العذراء، بل إنّه الروح القدس (متى ١٨/١ و ٢٠- لوقا ٣٥/١)، علماً بأن كلمة "روح" مشتقة من لفظة عبرية هي من الجنس المؤنث، كما أنّ جنس الكلمة التي تعادلها في اللغة اليونانية محايد (لا مذكّر ولا مؤنث). إنّ الحبل بيسوع، بالنسبة إلى الله، ليس نسلًا، بل عملية خلق جديدة، إذ "حلّ الروح القدس بمريم"، كما كان يرفّ على وجه المياه في الخليقة الأولى.

زد على ذلك أنّ أناجيل طفولة يسوع ليست الوحيدة التي تشهد للحبل البتولي، فقد لمّح لوقا إلى ذلك (٢٣/٣)، إذ كتب: "وكان الناس يحسبونه ابن يوسف"، ممّا يعني أنّه لحظ فرقاً بين ما يعلمه هو وبين ما ظنّه عامة الناس وقت ظهور يسوع في المجتمع.

وأخيراً، ليس احترام المسيحيين الأوائل للبتولية هو الذي كان وراء النصوص الإنجيلية حول الحبل البتولي بيسوع كما يدعى المعارضون المعاصرون. فالتقاليد التوراتية القديمة كانت تقدّر خصوبة النساء أكثر من بتوليتهن، ويكفينا لملاحظة ذلك أن نرجع إلى ما ورد في إنجيل لوقا (٢٥/١) من أنّ أليصابات كانت تخجل من كونها عاقراً. وبالعكس، هذه الروايات عن الحبل البتولي بيسوع هي التي دفعت الكنيسة إلى أن تعطي البتولية قيمتها.

* **الحجة اللاهوتية:** إنّ الحبل الاستثنائي بيسوع لا يحول دون كونه بشراً بكل معنى الكلمة. وهذا الحبل، كما رأينا، هو فقط إثر حادث خارق حصل في جسد مريم: "تأنس كلمة الله".

* **الحجة الثقافية:** رأينا، في سياق تأملنا في حقيقة العائلة المقدسة، أنّ سرّ الحبل البتولي لا يمكن اعتباره قطعاً كإنقاص لقيمة الأمور الجنسية.

ونودّ أن نبيّن هنا أنّ المعارضين الذين ادّعوا أنّ بتولية مريم تقتصر على مجرد عفة القلب، قلّلوا من دور الوقائع الجسدية والمادية في تاريخ خلاصنا. ذلك لأنّ الله ليس سيّد القلوب فحسب، بل هو ربّ الكون أيضاً، وقد أراد منذ ذلك الحين أن يؤثر في صميم الأمور المادية ليحدث منها أموراً رائعة، كشفاء مريض أو تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم ابنه. وهذا ما صنعه أيضاً عندما أرسل روحه فأعطى الحياة لجسد ابنه في أحشاء مريم البتولية.

وتجدد الإشارة إلى أنّ المنازعين في عقيدة الحبل البتولي، هم على وجه العموم ذاتهم الذين يصعب عليهم التسليم بصحة حالات الشفاء العجائبي أو بوجود الإفخارستيا. ذلك لأنّ تماسك الأفكار موجود، أكان في قبول أسرار الإنجيل أم في الطعن بها.

فالمسيحي لا يزدري الحقائق المادية، بل يقدر لها أهميتها، وهي أهميّة تتناسب مع "تأنس كلمة الله".

الله سيّد الأزمنة والتاريخ، وهو لا يتأخّر عن التدخّل أحياناً بصورة مباشرة في صميم الجسد، وذلك، إمّا بشكل مرئيّ (شفاء عجائبي) وإمّا بشكل خفي (الحبل البتولي بابنه، تقديس الخبز والخبز)، بانتظار اليوم الذي سيحوّل فيه الكون بأسره على صورة ابنه الذي سيتجلّى في مجده.

والمسيحيّون بالطبع غير مُلزمين بقبول الحجج المقترحة أعلاه ليؤكّدوا عقيدة الحبل البتولي. وكيفيهم أن يؤمنوا بها بناء على كلام الله المتناقل عبر تقليد الكنيسة القائم منذ قرون عديدة. إلاّ أنّه، كما ذكرنا آنفاً، ما من شيء يمنعهم من أن يحاولوا فهم المخطط الإلهي والاستمتاع به منذ هذه الدنيا.

٤- العذراء مريم في الفكر البروتستانتي

إنّ إخوتنا البروتستانتيين يعتبرون هم أيضاً أنّ الحبل البتولي ببسوع هو عنصر أساسي في الإيمان المسيحيّ. وقد وردت هذه العقيدة في قانون الإيمان، وهناك ارتباط مباشر بينها وبين سرّ تجسّد الكلمة.

وتتلخّص صعوباتهم في ثلاث نقاط:

1. إنهم ينظرون إلى مريم بكلّ طيبة خاطر على أنّها مثال إيمان وتسيب يجب الاقتداء به، كأنّها أخت كبيرة يُستحسن تلاوة الصلوات برفقتها. إلاّ أنّهم لا يجدون من المعقول التضرّع إليها. ذلك لأنّ شفاعة القديسين تبدو لهم مخالفة للمبدأ الرئيسيّ الوارد في العهد الجديد، والقائل إنّ المسيح وحده هو الوسيط بين الأب وبيننا، وإنّه وحده المخلّص. لذلك لا يجوز أن نعتمد على صلوات القديسين ومزاياهم، بل على شفاعة يسوع المسيح وحدها وعلى مزاياه وحدها.

2. إنهم يرون أنّ عقيدتيّ الحبل بلا دنس وانتقال العذراء، اللتين أعلنتهما الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهور المذهب البروتستانتي، لا تستندان بما فيه الكفاية إلى الكتاب المقدس، الذي هو دون سواه القاعدة الصحيحة لإعلان أيّة عقيدة.

3. إنهم يقولون إنّ الاعتقاد بأنّ مريم كانت بلا دنس منذ مجيئها إلى هذه الدنيا وأنّ جسدها ممجّد في السماء منذ انتقالها، يعني خصّها بامتيازات ستكون من نصيب جميع "المختارين"، ولكن في نهاية الأزمنة.

وفيما يلي بعض عناصر للجواب نوردها بكل اطمئنان:

1. إنّ المسيحيين لجأوا إلى شفاعة القديسين منذ القرون الأولى من تاريخهم. فالآب يحبّ أن ترده صلاة أبنائه "في المسيح ومع المسيح وبالمسيح"، وهي صلاة تسيب وطلبات.

2. منذ القرن الخامس، عمد القديس فانسان الليريني Vincent de Lérins إلى تبرير تطوّر عقائد الكنيسة، بتشبيه هذا التطور بنمو الجسم البشري، مؤكّداً أنّ نموّ الكائن وتطوّره لا يغيّران من جوهره. وأتاحت أفكاره تلك حول مفهوم تطوّر العقائد، للأنكليكاني "نيومان" أن يقبل تدريجياً بكل تطوّر الفكر الكاثوليكي، منذ ظهور المذهب البروتستانتي، ولا سيما في ما يتعلق بالمجال المريمي. إنّ الروح القدس لا يناقض أبداً الكتاب المقدس، بل يرشد تدريجياً تلاميذ المسيح إلى إدراك سرّه إدراكاً أكبر (يوحنا ١٦/١٣).

3. قبل ظهور المذهب البروتستانتي بوقت طويل، دأب المسيحيّون على اعتبار مريم فعلاً كأفضل وجه للكنيسة، إذ هي استنبقت على الأرض في روحها، وتسبق اليوم في جسدها، الحالة التي سيكون عليها كافة أعضاء المسيح في نهاية الأزمنة، بحيث تصبح "قديسين وبلا عيب" (أفسس ٤/١)

"وسينبذل" جسّدنا كلياً (قورنثس الأولى ٥٢/١٥)، على صورة الجسد المجيد لبسوع القائم من الموت.

هذا ومن المهمّ أن تؤدّي تقوى الكاثوليكيين لمريم إلى توجّههم نحو المسيح، وألاّ تمنعهم أبداً من مواصلة حوارهم المسكوني. ولكن طالما أنّ مريم أصبحت أمام الصليب أمّاً للكنيسة بأسرها حسب مشيئة يسوع الصريحة، فكيف يمكن تحقيق وحدة تلك الكنيسة بغضّ النظر عن وجود مريم؟

فهرس الأيقونات والصور

- الفصل الأول - عذراء فلادمير
- الفصل الثاني - عذراء الرحمة
- الفصل الثالث - أجمل من وجدت في العالم إطلاقاً
- الفصل الرابع- سيدة باريس
- الفصل الخامس - العائلة المقدسة
- الفصل السادس - عذراء الآية
- الفصل السابع - سيدة الإبتسامة
- الفصل الثامن - عذراء من العاج

المحتويات

المقدمة

- الفصل الأول : والدة الإله
- الفصل الثاني : أم الكنيسة والبشر
- الفصل الثالث : الممتلئة نعمة
- الفصل الرابع : العذراء مريم
- الفصل الخامس : العائلة المقدسة
- الفصل السادس : مريم مثال إيماننا
- الفصل السابع : مربية صلواتنا
- الفصل الثامن : سرّ فرح مدهش
- الملاحق :

1. تاريخ صلاة التبشير
2. تاريخ المسبحة الوردية
3. المصاعب أمام الحبل البتولي
4. العذراء مريم في الفكر البروتستانتى